كتب ثقافية

الزهاوى

شاعر الحرية

١٨٦٣ — ١٩٣٦

بقلم

انور الجندى

كتب ثقافية
الكتاب ٣٨

الزهاوى

شاعر الحرية

١٨٦٣ — ١٩٣٦

بقلم
انور الجندى

تصـــدير

منذ ربع قرن خلف جميل صدقي الزهاوي دنيـانا • وقد جاوز السبعين فما ذكره خلال هذا التاريخ الطويل الذيأوشك أن يكمل ربع قرن من الزمان ذاكرا الا بضع محاضرات الفيت في معهد من المعاهد العالية وفصل أو فصلين في مجلة هنـا أو هناك • واذا كان الزهاوي قد لقي الاغضـاء من الرجعيين أو الجامدين فلماذا نسيه المجددون وحملة ألوية الفكر الحـر الناهض • واذا كان أبناء عصره وجيـله قد غضوا من قدره فما باله اليوم وقد ظهر جيل جديد في العـالم العربي يؤمن بتقدير الاحرار من رجال الفكر وحملة المشـاعل في طريق التجديد والبعث • هؤلاء الاحرار الذين اذا ذكروا كان جميل صدقي الزهاوي ـ بلا مجاملة أو مبالغة ـ من أوائلهم وروادهم فهو شاعر الحرية الذي احتمل في سبيل دعوته عنتا شـديدا وهجوما عنيفا • وهجاءا قاسيا • واذا ذكر شـعراء عصره في مجال التجديد والجـرأة والاندفاع نحو أهـداف الحرية والتجديد ، لم نجد من يستطيع أن يسبقه أو يلحقه أو يقف في صفه •• فقد كان شعراؤنا في مصر وسوريا ولبنان والعراق ـ في الاغلب ـ مجاملين يسيرون في ركب الامـراء محافظين متئدين يقفون في الوسط في معترك التجديد والتقليـد ••

ولايمكن أن يكون شوقي أو حافظ أو مطران أو الكاظمي أو الرصافي قد طالب بحرية الكلمة أو اندفع في جرأة الزهاوي ليطالب بتحرير المرأة أو تنقية العقيدة أو تحطيم الاصنام أو الدعوة للقومية العربية أو مهاجمة الخلافة العثمانية أو الحكومة الفاسدة أو طغيان الامراء أو استبداد الملوك أو اجرام المستعمرين ٠

ومع هذا فقد لقي جميل صدقي الزهاوي بعد موته نفس الهوان الذي لقيه في حياته فلم يذكره الا القليلون ولم يكتب عنه بعض ما كتب عن شوقي أو الرصافي أو مطران ٠

وعندما أخذت أدرس حياته بحثت عنه في مطبوعات دور النشر الكبرى فلم أجد عنه في أبواب الاعلام دراسة ولا في باب الشعر ديوانا ٠٠ ولا في أبحاث الادب رسالة ٠٠ ولولا فصول منثورة كتبت في الهلال والكتاب والرسالة وفي مؤلفات الريحاني وروفائيل بطي وشوقي ضيف ولويس شيخو وأنيس المقدسي والزيات ٠٠ لكان من العسير أن يجد المؤرخ ما يضيء أمامه الطريق لحياة هذا الشاعر العملاق الذي كنا نصافح شعره سنوات ١٩٣٢ وما بعدها في الرسالة فنرى ذلك الوهج القوي اللافح في جرأته وحرارته وايمانه ٠٠ وهو في ذلك الزمن لم يكن الا في شيخوخته ٠٠ كان في السنوات الاخيرة من عمره المديد ٠٠ وقد هدته الامراض ٠٠ ومع ذلك فقد كان حيا دافقا يملأ النفس ٠٠ ويذكر بعظمة المتنبي

والمعري مختلطة ممتزجة .. الاول في كبريائه واعتداده والثاني في شكوكه وتحرره ..

ولقد كان من الطبيعي أن يجيء اليوم الذي يثير الزهاوي ثورة جديدة في الشعر العربي والفكر العربي وان بدت أهدافه ومعانيه ورؤاه اليوم وقد تحققت الا انه مايزال رمزا على معنى الجرأة والقوة والحيوية الدافقة .. انه سيظل منارا في الفكر العربي يهدي الى غاية جديدة لم يكن يعرفها الشعر العربي من قبل وان يكن مطران قد جدد القوافي فان الزهاوي قد جدد المعاني وأعطى الشعر معناه الحق في الكلمة الخالدة « ديوان العرب ».

عصر الزهاوي

عاش الزهاوي سبعين عاما من عمر العراق والامة العربية في فترة من أخطر فترات هـذا الشرق ٠٠ هي مرحلة التوثب والصراع والانتقال من استبداد تركيـا العثمانية الى ظلم الاستعمار البريطاني ٠٠ عاش هذه الفترة الضخمة يقظ القلب حي الوجدان ٠٠ متأثرا بالاحداث ٠٠ مسجلا لها ٠٠ ولم يقف عند هذا شأن الشعراء ٠٠ ولكنه كان صـادقا يدعو قومه الى كل جديد ، لا يمل الحداء ولا النداء ولا الدعـوة مهما أغضب الناس ومهما أغضبه الناس ٠٠ انه ذلك الداعي العنيد الذي يتلقف كل جديد من الرأي فينقله شعرا ويدعو اليه العـراق والعرب ٠

وقد شب الزهاوي عن الطوق ابان الاحتـلال البريطاني لمصر وهزيمة عرابي ٠٠ في نفس الوقت الذي كان العـراق يرزح تحت سلطان طاغ هو سلطان العثمانيين ، الذين يكرهون العرب ويسومون جزءا كبيرا من الامة العربية استبدادا مرهقا عاصفا ٠ وكان عبد الحميد اذ ذاك يقبض بحفنة من الجواسيس على رقاب العباد ويحصي عليهم أنفاسهم ٠

وسرعان ما خافت الزهاوي مدائحه للسلطان ، عندما بدت معالم دعوة أحرار تركيا الى مقاومة استبداد عبد الحميد ،

وراح يمطره وابلا من شعره الثائر داعيا الى الدستور .. ثم
يصور تاريخ اعلان الدستور العثماني و ينشر زجلا في تهنئة
الامة وهنا نرى الزهاوي في مقدمة الركب فرحا مبتهجا ..
يحيي للحرية ويحيا للعراق ويتطلع الى فجر جديد في حياة الامة
العربية ثم لا تلبث الدعوة الى القومية العربية ان تعلن حتى يشارك
فيها ويهاجم أحمد جمال السفاح الوالي التركي على سوريا بعد
ان علق على المشانق الابرار شهداء من صفوة الرجال الذين
للدعوة الى انفصال العرب عن الترك ومقاومة الحملة المغرضة
لتتريك العرب باسم « الجامعة الطورانية »

فاذا بدأ العراق يدخل في عهد جديد بعد ثورة دامية نرى
الزهاوي يدعو الى الدستور والبرلمان والشــــورى وحرية
الصحافة والاستقلال وتحرير المرأة .. ويتقدم موكب الدعوة
الى الاصلاح الاجتماعي ويشارك فيه مشاركة فعالة .

وهو في هذه المرحلة الطويلة يهدر بالشعر قويا حيا ذاخرا
بالانتفاضات ، فيه صورة ذلك القلب الذي يتحرق الى حرية
قومه من أسر الاستبداد والاســــتعمار و الخرافات والاوهــام
والجمود .

وهو طوال هذا الزمن يدافع عن دعوة الحرية والتجديد في
قوة .. ويكرر ما يقول أحيانا .. ويندفع في حماسة بالغة ..
وقد يكبو .. وقد يخطىء .. ولكنه لا يتوقف أبدا ولا يصمت
أبدا .

وقد يكون شعره نظما .. وقد يكون أقل جودة من شعراء
عصره ولكنه يتفوق عليهم جميعا في أنه يحمل مضمونه معاني

قوية .. وآراء جديدة .. وحركة دائبـــة .. وانه يدعـو
ولا يمل الدعاء الى العصرية .. ويصرخ ولا يمل الصراخ
مدافعا عن الجديد ... وينادي ولا يتوقف عن المنـاداة
باسم العراق الحبيب الى نفسه ونفوس العرب جميعا . وقد
عاش هذا الزمن كله طوال أيامه عابسا متشـائما شـاكيا
ساخطا مسرفا في العبوس والتشــاؤم .. غير متوقف عن
الشكوى والسخط ذلك ان نفسه الكبيرة وحبه للعراق وايمانه
بالحرية وتطلعه الى فجر مشرق يرى فيه العرب وقد أصبحوا
في مقدمة الركب . كل هذا كان يشعره بأن التطور بطيء وان
التقدم وآن .. وان ما يتطلع اليه من أمل مايزال بعيدا . أضف
الى هذا أنه كان يحس بعد أن ارتفع به السن انه لم ينصف
في قومه ولم يكرم في وطنه .. ولم يأخذ مكانه الحق .. وان
حملات النقد العاصف وكلمات الهجاء المرير كانت تنتاشه من
هنا أو من هناك . ونسي انه لم يكن شاعرا يغرد فيجتمع حوله
الناس ليصفقون له ، وانما كان داعية يحطم قديما باليـا ..
ويمزق تقاليدا تعارف عليها الناس بالحق أو بالباطل طويلا.
وانه كان يدعو الى جديد تنظر الجماهير اليه في خوف وقلق
واشفاق ، وان من شأن من يتصدى لهذا أن لا يجد من عامة أهل
جيله الا المعارضة والخصومة .. وقد كان يسـتطيع أن يدع
هذا وأن يعيش مادحا ومغردا وسائرا في كل ركب ، عندئذ
كان يجد من عامة الناس الرضى والاعجاب والتصفيق ، أما وقد
اختار لنفسه الدعوة الى الحرية والخلاص من أسر التقليد ..

واغلال القديم .. وقيود الجمود .. فلم يكن من المتوقع أبدا أن يواجه الا بمثل ما ووجه به على أن الزهاوى يقر الان فى قبره راضيا حين يرى أن دعوته دفعت العرب جميعا الى الفجر الصادق .. فبدت علامات الحرية الحقة ترتسم فى الافق .. والاوطان تخلص من المستعمر ، والمجتمع يتقدم ، والمرأة تأخذ حقها فى العلم والسفور والعمل فتشترك فى كبريات الاعمال وتدخل البرلمان وان علامات الجمود والتقليد والبدع فى محيط الدين قد تراجعت وحل محلها اجتهاد وتحرر وعودة الى المنابع الصافية للعقيدة .

وليس شك أن صيحة الزهاوى وثورته المتصلة ودعوته التى امتدت خلال حياته أكثر من أربعين عاما كان لها أثرها فى التطور .. ومكانها فى تاريخ حركات البعث والتحرر .

مطلع الشباب

ولد الزهاوى (١) فى يوم الاربعاء ١٨ من شهر يونيو (حزيران) عام ١٨٦٣ فى بغداد وكان والده محمد فيضى الزهاوى مفتى العراق •• وأخوه فقيه من فقهائها •• ويرجع نسبه الى أمراء السليمانية الذين يرجعون الى خالد بن الوليد وترجع شهرته بالزهاوى الى أن جده هاجر الى «زهاو» من أعمال ايران فأقام فيها • وتزوج منها بسيدة زهاوية •

أما أم المترجم له فسيدة من أسرة عريقة فى المجد غير انها كانت عصبية المزاج ولا تذعن لرأى أحد (٢)

ومن هنا تنكشف لنا حقيقتان : الاولى انه نشأ فى محيط الفقه والدين وكان والده واخوه يريدانه صاحب فقه وقضاء • فاندفع خارج هذا المحيط بل لم يلبث أن هاجم هذا المحيط بثورة على الفقهاء ورجال الدين وهذا اتجاه طبيعى بالنسبة للزهاوى العنيد من ناحية وبالنسبة لرغبته فى التبريز عن

---

١ ــ زهاوى زاده جميل صدقى افندى كما ورد اسمه فى الكتب القديمة

٢ ــ من رسائل الزهاوى الى أحمد محمد عبيش • ملحق السياسة الاسبوعية ٧ يناير ١٩٣٢ .

طريق مخالف لطريق أبيه وأخيه والاخرى .. ان أمه كانت عصبية المزاج ولا تذعن لرأى أحد . وقد ورث الزهاوى منها هذا الطبع وعرف به .

يقول الزيات : كان اهله يريدونه صاحب قضاء وفقه ، ولكن عناده دفعه ان يديم النظر فى الاداب .. ثم بدا ينظم الشعر فكان صاحب دعوه ونسمعه وان الاستعداد الموهوب فى الطبع وهو منميته الحدث فى حتى . جعل من الزهاوى أبا العلاء وقد كان اهله يريدونه ابا حنيفه .

ويرد بعض المؤرخين جراة الزهاوى الى عرق العم والخال من الكرديه .

وقد تعلم الزهاوى تعليما دينيا .. فقد ذهب الى الكتاب فى سن الخامسة ومكث فيه لبضع سنوات بليدا لا يتقدم ولا يهتم بغير اللعب ونظم الاشطر الفارغة من المعانى .

وكان كثير الحركة محبا للعب أكثر من اخوته واترابه .. متمردا لا يذعن لرأى .. يقول الزهاوى فى رسالته (١): كنت فى صباى أدعى بالمجنون لحركاتى غير المألوفه .. وفى شبابى بالطائش لخفتى وايغالى فى اللهو . وفى كهولتى بالجرىء لمقاومتى للاستبداد . وفى شيخوختى بالزنديق لمجاهرتى بارائى الحرة الفلسفية .

وقد تعلم كثيرا من علوم الاولين فلم يشبع عقله . واستطاع أن يقرأ كثيرا مما ترجم الى العربية على أساتذة مختصين .

(١) رسائل الزهاوى . مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧

ثم قرأ عن الفارسية والتركية بعد أن أجادهما ومعنى هذا أن علامات الثورة ولدت مع جميل وأن روح التمرد وعدم الاذعان لاحد .. كانت من أول ملامح صباه وقد ظلت عند العوامل تتفاعل فى نفسه طوال حياته .

ولعل أمرا آخر كان له أثره فى تكوين طبيعة الزهاوى وشخصيته : يقول الزهاوى (١) كانت والدتى تعيش مع أولادها فى بيت منعزل عن بيت والدى فنزعنى والدى من أحضانها دون اخوتى واخوانى .. وأخذ على عاتقه تربيتى تربية خاصة متبعا هواه . وكان من هواه الادب .. وكان شاعرا فى الفارسية والعربية معا غير أنه مقل فيهما .

ولعل هذا الحادث له أثره فى نفسية الزهاوى .. فان انتزاعه من أمه دون اخوته لابد أن ترك فى نفسه احساسا بالالم والضيق أضيف الى عوامل نفسه فزادها ثورة وقلقا واضطرابا

ثم ابتلى جميل فى الخامسة والعشرين من عمره بداء النخاع الشوكى الذى لازمه بقية حياته ولم يلبث بعد ذلك أن أصيب بالشلل فى رجله .

ويقول أحمد محمد عيشى (٢) ان جميل حفظ جزء «عم» بعد ثلاث سنوات .. ثم قرأ جميع أجزاء القرآن وحفظ منها ما استطاع وتفتح ذهنه شيئا فشيئا .. وقرأ على بعض العلماء مبادىء الصرف والنحو والمنطق .. وقليلا من البلاغة .. ولما

---

(١) رسائل الزهاوى . مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧

(٢) السياسة الاسبوعية ـ ٧ يناير ١٩٣٢

رأهم لا يشبعون جشعه ٠٠ ولا يروون غلته ٠٠ ولا يقنعونه بأجوبتهم على أسئلته العويصة عن الالوهية وما شاكلها رجع الى أبيه غضبان أسفا ٠٠ قائلا له :

هؤلاء شيوخ جامدون

قال والده : وبين لك يا بني أنت ومن على شـــاكلتك من الشيوخ الجامدين ٠٠

وهذه هي أول معالم الثورة ٠٠ ولابد أن ذلك كان في سن العشرين أي عام (١٨٨٣) وهذا التاريخ عندما بدأ حيـــاة الزهاوي الادبية وعلامة الطريق الطويل الشاق الذي قطعـه محملا بوراثياته وعوامل بيئته ٠

ولقد كان والده يشفق عليه من ثورته ونزعته الجريئة الى التمرد ٠ ويروى انه استدعى ابنه اليه في ليلة من ليـــالي الشتاء الباردة ٠٠ كان قد أهداه عباءة جميلة ٠٠ وقال :

ـ ألبس ٠٠ ياجميل عباءتك فأني أخاف عليك البرد

ورد جميل على طريقته المتمردة الجريئة :

ـ يا أبي اني لابس الغرفة فمن أين يتسرب البرد الي ٠

وصمت والده ولم يزد على أن نظر اليه فرأى بريق الذكاء الحاد ينفذ من عينيه الواسعتين وقد رفع رأســه الكبير في زهو وثقة ٠٠

وقد قسم جميل شبابه بين اللعب والقراءة ٠٠ كان يلعب بالكعاب ثم بالحمام القلاب فيطيره أسرابا في الهـــواء ٠ كما أولع بركوب الخيل فكان يسابق ويسبق كما أحب لعبة الداما

وقد ألف في هذه الالعاب رســـــائل نشرها فى المقتطف والهلال .

ومن ناحية أخرى أكب على قراءة المتنبى وتفسير البيضاوى وغيرها من المؤلفات الضخمة التى كانت تحفل بها مكتبة أبيه

وقال الزهاوى فى بعض كتاباته (١) طالعت فى شـــبابى مؤلفات الدكتور فانديك المطبوعة فى بيروت وكتابى أصـــول التشريع والفسيلوجيا لورتبات . وبضعة مجلدات من المقتطف كانت قد نشرت يومئذ فحصل لى بسبب هذه الكتب الاطلاع على أساسات العلوم العصرية ، ثم توسعت فى هذه العلوم فى كهولتى بمطالعة كتب مترجمة الى التركية . وأكثرت من قراءة الروايات يومئذ من الفرنسية الى التركيـة .. فحصلت على شىء قليل من العـلم بعـادات المجتمع الغربى وأفكاره منها البؤساء لهوجو فى مجلدين ضخمين . ولم استغن حتى اليوم عن مطالعة الكتب المترجمة الى العربية أو التركية .

---

(١) الكتب التى أفادتنى مجلة الهلال ـ ١٩٢٧

حيـــاته

من الاعلام من تكون حياتهم خطا واحدا مستقيما لا أحداث فيه ولا تقلبات ومنهم من تضطرم حياته بالاحداث صـــاعدة هابطة • دافعة مندفعة • هادرة لا تتوقف ولا تسـكن • ومن هؤلاء جميل صدقي الزهاوي فقد كانت حياته الطويلة حافلة متحركة وهي الى ذلك خصبة غنية فيها الجديد دائما وفيهـا الصراع والارتطام والاختصام لا يتوقف ولا يهدأ ولا يلين •

والزهاوي منذ اليوم الاول حتى اليـوم الاخير هو : الثائر المتمرد الجريء الذي يعارك ويخلق ميادين المعـركة ويواجه الناس بالجديد والغريب مما يغيظ ويثير •

قلمه هو متنفس حياته •• ونافذة روحه ••

ولقد ذهب الزهاوي شمالا وغربا وشرقا •• وعمل في أكثر من عمل • وهو بطبيعته القلقة لا يقـــر ولا يتـوقف • وانما يتحرك ويتحرك دائما •• عينته الحـكومة التركية في أول شبابه عضوا في مجلس المعارف ببغداد ثم مديرا لمطبعة الولاية ومحررا للقسم العربي من الجريدة الرسمية «الزوراء» ثم عضوا في محكمة الاستئناف ثم عين عضوا في مجلس المبعوثان عن بغداد ولما أعلن الدستور عين أستاذا للفلسفة في المكتب الملكي بالاستانة ثم مدرسا للاداب العربية في دار الفنون ثم عاد الى

بغداد فعين أستاذا للشريعة فى كلية الحقوق ثم نائبـــا فى مجلس الشيوخ العراقى ٠

وفى خلال ذلك سافر الى مصر وسوريا وذهب الى اليمن بارداة سلطانية « واعظا عاما » وعضوا فى الجمعية الاصلاحية وبقى فيها تسعة أشهر ٠

وهاجر الى سوريا ومصر ٠ وأقام بالشام وبيروت فترة ثم عاد الى العراق

هذه ملامح الصورة العامة لحياته العملية ولكنها تحـوى أغوارا بعيدة المدى فانه لم ينس خلال حياته هذه شعره ولا أدبه كان ينشر فى المجلات والصحف فى مصر وبيروت والشـــام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة أيام الاستبداد الحميدى بامضاء مستعارة ٠

وعندما سافر الى استانبول اجتمع بالاتراك الاحرار وجهر بالسخط على نظام الحـكم القـــائم اذ ذاك ٠ ونظم عددا من القصائد نشرت فى المؤيد٠ وعاش تتعقبه الجواسيس٠ وكانت النهاية أن سجن وحمل مقيدا الى بغداد ٠

يقول الزيات (١) : رأى فى الاستانة عبد الحمـــيد يلقى الاحرار مغلولين فى غيابة السجن أو فى قاع البحر فأرسـل اليه مع أبى الهدى قصيدة قال فيها :

---

(١) الرسالة مجلد ١٩٣٧

أيأمر ظل الله فى أرضـــه
بما نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مـــال وينفى مبرأ
ويسجن مظلـوما ويسبى ويقتل
تمهل قليلا لا تغظ أمـــة اذا
تحرك فيهـــا الغيظ لا يتمهـــل
وأيديك ان طالت فلا تغتر بهـــا
فان يد الايام منهن أطـــول

فحبسه حينا ثم نفاه ..

وسمع وهو عضو فى مجلس المبعوثان عن بغــــداد مقرر الميزانية يذكر فى وزارة الحربية مبلغا جسيما من المال جعلوه لقراءة البخارى فى الإسطول فقـال : انا أفهم أن يكون هـذا المبلغ من وزارة الاوقاف .. اما الحربية فالمفهوم أن الاسطول يمشى بالبخار لا بالبخارى . فثار عليه المجلس وشغب عليـه العامة .

ولما دعاه الخليفة الى الاستانة ، أقض مضاجع الجاسوسية فانتقص أمره وساء مقامه .

ويروى الزهاوى فى احدى رسائله الى أحمد محمد عيشى أحرج ساعات حياته يقول : ان أحرج ساعاتى هو يوم هـاج الشـعب العراقى على عام ١٩١٠ لمقـــالة شديدة نشرتها فى « المؤيد » فى الدفاع عن المرأة حتى انى قبعت فى دارى أسبوعا ولم أخرج منها خوف اغتيال الشعب المارد لى . وعزلنى يومئذ والى بغداد ناظم باشا من وظيفتى فى مدرسة الحقوق ببغداد

وقد تزوج الزهاوى فى سن الثلاثين بالانسة زكيــة هانم وعمرها يومئذ ١٦ سنة وهى من بيت تركى شريف ولم يولد لهما ولد وخدمته فى شيخوخته باخلاص وامانة (١) .

وقد عاش الزهاوى (٢) بالرغم من الامراض والشـــلل والنوبات العصبية ، ظل الى ما قبل وفاته بيوم واحـــد وقاد الذهن قوى الذاكرة . وكان يحب المرح والاطراء ويضـــيق بالنقد ذرعا .

ويصف الزيات الزهاوى . وقد عاش معه فى العراق أعوام ٣٠ و٣١ و١٩٣٢ وكان صديقه الوفى .. «لم تكد تلـوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السـمـاع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخا فى حدود الثمانين قد انخرع متنه وثقلت رجله وزعشت يده فهو لايحمل بعضه بعضا الا بجهد

والزهاوى ديدنه أن يتكلم كالبلبل خاصته أن يغـرد .. فهو فى مجلس الصداقة مداح أو شــاكر . وفى مجلس الادب محاضر أو شاعر وفى مجلس الانس مفكه أو محدث » .

كما صور الزيات منتداه بشارع الرشيد أو على ضفة دجلة وهو جالس على الدكةالخشبية ينشد الابيات الرائعة أو يرسل النكتة البارعة أو يروى الخبر الطريف فى بشــاشة جذابة وقهقهة ساذجة .. ويده المرتعشة لا تنفك تعبث بســبحته الصغيرة أو تصعد وتهبط سيكارته العراقية .

---

(١) رسائل الزهاوى : الكاتب المصرى . يناير ١٩٤٧

(٢) سليم طه التكريتى . مجلة الكتاب . يونيه ١٩٤٩

كما وصف شعره في (الصابونجيه) وكيف كان يحدثه أنه قضى الليل شعرا يقرأ .. وذاهلا يخطم .. القصص والمجلات منتشرة على سريره وعلى مقعده .. المسودات مدسوسة تحت مخداته أو في ثيابه ..

يقول للزيات : أنظر كيف اذيب عمري في شعري . والامة تقذفني بالبهتان .. والحكومة تخرجني من مجلس الاعيان .. والملك يستكثر على أن أكون شاعر البلاط .

.. ثم لا يلبث أن يقول : سأذهب وسيبقى الشعر ي معبرا عن شعوري ناطقة بآلامي فهي دموع ذرفتها على الطرس وهي خليقة أن تبعث من عيون قارئي دمعة هي كل جزائي عن نظمها

شـــعره

اشتغل الزهاوى بالنثر والشعر ولكنه برز فى الشـــعر وعرف به وأطلق عليه لقب (الشـــاعر الفيلسوف) وقد بدأ حياته كاتبا ولكنه تفرغ للشعر بعد قليل واقتصر عليه . وان كانت محاولاته الاولي في الشعر بدأت باكرة وســـاذجة ..
يقول الزيات : لم يعرف الشعر الا بعد أن علت به السن .

ويقول فى رسائله الي محمد أحمد عبشى (١) : ان والده كان شاعرا فى الفارسية والعربية معا وان كان مقلا فيهما ..
ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدع فى حاجة بازا ولا أســـدا
الله ربـــك لا تشرك به أحدا

يريد بالباز عبد القادر الجيلى . وبالاسد عليا بن أبى طالب كما كان يلقبهما به الجمهور فى العراق .

ويقول : وأتذكر أنه ـ أي والده ـ كان فى طفولتي يعدنى بدرهم اذا نظمت شطرا واحدا من الشعر موزونا . وان لميكن له معنى . وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جـــزل

---

(١) ٧ يناير ١٩٣٢ ـ السياسة الاسبوعية

والذي • اما جذلي أنا فكان في الحلوى التي كنت اشتريها بذلك الدرهم •

وقد تناول الزهاوي في شعره السياسة والاجتماع والغزل والعلم والفلسفة •

أصدر عدة دواوين : الكلم المنظوم بيروت ١٩٠٨ • ديوان الزهاوي : القاهرة ١٩٢٤ ، رباعيات الزهاوي : بيروت ١٩٢٣ اللباب : بغداد ١٩٢٨ ، الاوشال : بغداد ١٩٣٤ ، الثمالة : بغداد١٩٣٩ ، ترجمة رباعيات الخيام من الفارسية بغداد ١٩٢٨

وله ديوان نزعات الشيطان مجموعة من القصائد لم تنشر بعد في المجلات والجرائد •

يقول الزهاوي : وسوف تنشر بعد موتي لانها تصدم آراء المتعصبين وتثيرهم على اثارة لا أحمد عقباها •

وقصيدة : ثورة في الجحيم •• وعدد أبياتها ٤٣٣ بيتا ونشرت في مجلة الدهور في العام الماضي •• وكانت تصدر في بيروت • يقول الزهاوي (١) وقد قامت حولها ضجة كبيرة • وقد سبني بسببها بعض المتعصبين على المنابر في خطبة الجمعة • ونفذت بعد قليل من الزمن نسخها •

يقول الزيات : نظم في أعقاب عمره قصيدة « ثورة في الجحيم » فلما كلمه الملك فيصل بشأنها قال : عجزت عن اضرام الثورة في الارض فأضرمتها في السماء •

وقال الزهاوي في رسائله : أن أكثر شعري الذي نظمته

---

(١) رسائل الزهاوي ديسمبر ١٩٤٦ الكاتب المصري

قبل الدستور العثماني نشر في ديواني الاول الكلم المنظوم (١) كما كتب عليه هذه العبارة « نظمه ونشر أكثرها اياتها بامضاء رمزي في أشهر جرائد مصر يوم كان الاستبداد شديدا » ·

وقد أوضح الزهاوي منهاجه الشعري في مقـدمة ديوان الزهاوي الذي صدر في القاهرة عام ١٩٢٤ : قال في مقتطفات من هذه المقدمة :

الشعر ما ينظمه الشاعر من احساس يجيش في نفسـه باوزان موسيقية فيهز به المسامع ·· ولا أرى للشعر قواعـد بل هو فوق القواعد ·· ولا يتقيد بالسلاسل والاغـلال ·· وهو أشبه بالاحياء في اتباعه سنة النشوء والارتقاء ·· يتجدد بحسب الزمان ويرتقي من الادنى الى الاعـلى ·· وانزع أن أمشي بشعري في سبيل الحيـاه الطبيعية متجنبا المبالغات وما أخلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التي ورثها الابنـاء عن الاباء فيقول ما يشعر به ·· ولا يشعر به اباؤه ·

ومازلت في جو من الفـكر طائرا
ومن عادتي أن لا أطير مع السرب

ولا أرى مانعا من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيـات من القصيدة ·· عند الانتقال من فصـل الى آخر ·· كما فعلت

(١) طبع في المطبعة الاعلية ببيروت وآخر قصائده مؤرخة بغداد في ٧ أغسطس ١٩٣٢م

فى عدة قصائد ، لا دفعا لملل السامع من سماع نقافية الواحدة في كل بيت .. بل اراحة للشاعر من كد الذهن لوجدانها. واجيز للشاعر أن ينظم على أي وزن شاء سواء كان من أوزان الخليل أو من غيرها. والشاعر الحر شجاع لا يهاب في الصدق لومة اللائمين ، الا اذا أحس بالمهلكة فعندئذ يسكت أو يكذب. ونزاع الى التجديد . يثور على النظام . ويتمرد على السلطان الكاذب .. يريد كل يوم أن يمرق عن العـــادات . ويمزق أطمارها البالية كالفراشة التي تخلع شرنقتها لتبرز في ثوب أجمل محبر بألوان السماء .

٢ ـ الجديد .. الجديد .. هو أحسن ما تنزع اليه النفس الوثابة ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما النظر .

سئمت كل قديم عرفته فى حياتى

ان كان عندك شيء من الجديد فهات

ولا أريد بالتجدد أن يقلد الشاعر العربى شعراء الغرب فى شعورهم .. فان لكل أمة شعورا خاصا بها لا تحس به أمة أخرى .

لا اقول أن يجمد الشاعر العربى على ما هو عليه الشعــــر اليوم .. بل الاحجى أن يترقى شعر كل أمه فى سبيله

ولا يسوغ للشاعر العربى مخالفة قواعد اللغة . وللشاعر الفحل أن يولد فى اللغة اذا مست الحاجة كلمات لم يات بها من جاء قبله .

٣ ـ وجدت الذين يمارسون الادب ثلاثة

الاكثر عددا من لايستحسن من الشعر الا ما ألفــه من

من القديم وانتقل اليه بالوراثة من العصـــور الماضيـة ..
والشعراء المسايرون للجمهور ينالون حظوة منهم
• المتشرب مخه من الادب الغربى لاينزع الى الشعر العربى الا على نسق مايقول شعراء الغرب . ومثل هذا قد خرج من نفسية قومه واندمج فى غيرهم .
• قليل يسير مع رقى العلم جنبا الى جنب . ويستحب الشعر خلوا من المبالغات منطبقا على الطبيعة مع المحافظة على الشعور العربى الذى هو قوام شخصيته . والاخلق الا ينتظر الذى له نزعة التجدد أن يكبر شعره الجمهور من جيله الا اذا كان الجمهور منحطا قد تعود القديم .. والشاعر الذى يساير شعور الناس فيما ينظم ينال اقبالهم على شعره مادام الشعب جامدا . أما اذا تقدم الشعب ، فان شعره يموت ويأخذ مكانه الشاعر الذى يتجدد مع جيله ..أ.هـ
وقوام راى الزهاوى أن هدف الشعر عنده هو التجديد .. ودفع الشاعر الى الحرية الفكرية والاصلاح . وحمل الجماهير على الانتقال من الجمود الى الحياة .
وقد كان الزهاوى شاعرا له هدف ورسالة وغاية يحمل دعوة البعث فى حدود قوله : تمزيق العادات البالية دون أن يخشى غضب الجماهير أو هجائهم .. بل انه يرى أن الجمهور لا يكبر الشاعر المجدد الا بعد أن يموت ويأخذ مكانه بين الشعراء قال: (١) غنيت لابناء وطنى لانى أريد ايقاظهم .. فلما

(١) مقدمة ديوان الزهاوى ١٩٢٤

فتحوا عيونهم فشتموني ، ثم غنيت فاخذوا ينظرون الى شذرا
ثم غنيت فابتسموا لي ثم صفقوا وبقي فيهم من يشتم . وسيبقى
وساغني الى ان يسكتني الموت ، وسوف تبقى للمعاني معبرة عن
شعوري وما كابدته في حياتي من شقاء واضطهاد ، فهي دموع
ذرفتها يراعتي على القرطاس تصفه بالامي .. وهي حقيقة بان
تذرف من عيون قارئها دمعة على كل جزء من نصها .

ويرى الزهاوي ان شاعر الاجيال لا يموت شعره لانه يبنيه على الحقائق الخالدة .. وهو في الغالب يسبق جيله » ولا أراه مستفيدا من المستقبل الذى يجمع أهله على اكباره لانه يكون يومئذ تحت اطباق الثرى بيتما لايسمع هتاف الهاتفين له » .. والزهاوى في هذه العبارة يعني نفسه . ويرى أنه قد سبق جيله وانه لم يلق الجزاء من أهل زمنه . ولم يستهدف الزهاوى من شعره كسبا أو نفاقا قال :

شعري ما أردت أن أكسب به مالا .. أو اتزلف على احد . فما رثيت الا من كان صديقي . ولا حمدت الا من ظننت فيه خيرا للبلاد . وربما خاب ظني في بعضهم فكففت .

ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن الزهاوى جرى مجرى القدماء في المدح والرثاء والهجاء . وهو في هذا مجدد بالمعاني . مقلد بأساليب القدماء وأبواب القول عندهم .

ويصور الزيات الزهاوى الشاعر في قوله : كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته وهو من شعراء الفكرة له البصيرة النافذة . وليس له الاذن التي (تموسق) الموسيقى .. ولا القريحة التي تصنع .. فاللفظ قد لا يختار .. والوزن قد

لايتسق والاسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية لجرينة تعج بين الابواب المتخاذلة عجيج الامواج المزبدة بين الشواطىء المنهارة .. ويرى الزيات أن الزهاوى عقلية أفاقة وسريرة دفاقة وطبيعة ساخرة .. وهذا التوثب الحماسى هو الذى جعله يؤثر النظم فى تقييد خواطره .. وهذه الحماسة قد تشت أحيانا عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها .. فيذهب الشاعر ولا يبقى الفيلسوف .

ويقول الزهاوى فى بعض رسائله أن شاعريته بدأت وهو فى سن الخامسة عشرة .. ومن أوائل شعره :

أما آن أن نأبى على الوطن العارا

فنركب أخطارا ونقضى أوطارا

وقد ترجم الزهاوى شعرا عن توماس هاردى ونشره فى الهلال عام ١٩٢٩ ..

وتعد قصيدة « ثورة فى الجحيم » من أهم شعر الزهاوى فهى مؤلفه من ٤٣٣ بيتا فى قافية واحدة نشرها عام ١٩٢٩ فأحدثت ضجة وقد ساير فيها (رسالة الغفران) وتأثر بها تأثرا واضحا فى الفكرة والمشاهد . كما تأثر بدانتى فى الكوميديا الالهية . وأخذ من (هوجو) العبارات التى ساقها على ألسنة الملاك الذى اتخذه رمز البومة .. وخلاصة ملحمته أن الشاعر يموت ويودع فى القبر فيظهر منكر ونكير ملكا الحساب .. فيجرى بينه وبينهما حوار حول العقيدة والحياة والدين والايمان وتفاصيل العبادات والفروض الدينية . وقد عرض لهذا كله فى سخرية وتهكم شديدين .

وهو يؤمن بنفسه كشاعر ومجدد وان لم يكن زعيما :

انني منذ كنت أشدو بشعري
كان يوحي الي بالتجـــديد
أنا لا أدعي الزعــــامة فيه
غير أني أبث فيه وجـــودي
حبذا الليـــــل والنهار بعيني
انني مغـــــرم بكل جديد
وجديد القـــريض قرب معــانيه
وبعد له عن التعقيـــــد

ولقد أحب الزهاوي وقال شعرا عاطفيا رائعا :

نظرت اليها وهي بيضـــاء تبهج
تجد به ماء الصــــبا يتموج
مشت ومشى قلبي المتيم خلفهــــا
يقبـــــل آثار الخطى حيث تنهج
لها وهي أدرى العـــالمين بحالتي
هوى في فؤادي ناره تتـــأجج
أريد اذا قابلتهـــــا لابثها
غرامي بها لكنني أتلجـــلج
تمنيت ياسلمي وهل ينفـــع المنى
لو أن حياتي في حيـــاتك تمزج

الزهــاوى المجـــدد

أجمع مؤرخو الزهاوى على أنه شاعر مجدد وانه جدد فى أربعة أمور :

◆ مكافحة العادات والتقاليد الباليه والدعوة الى التحرر والتجدد والاصلاح الاجتماعي .

◆ مناصرة المرأة والدفاع عن حقوقها

◆ ادخال النظريات العلمية ، والافكار الفلسفة المستحدثة في الشعر .

◆ التحرر من قيود اللغة واستعمال المصطلحات العلميــه ومزاولة الشعر المرسل

وقد ثار الزهاوى على القديم جملة .. فى الفكر والسياسة والاجتماع .. وثار على الحكام المستبدين والطغاة الظالمين . ونقد سلاطين آل عثمان وولاتهم مما أدى الى سجنه ونفيـــه ومحاربته فى رزقه .

قال فى السلطان عبد الحميد الثاني وقد نفي بسببها من الاستانة عام ١٨٩٧

لقد عبثت بالشعب أطمـــاع ظالم
يحمله من جـوره ما يحمـــل
فيا ويح قوم فوضوا أمر أنفسهم
الى ملك عن فعـــله ليس يسئـــال
الى ذى اختيار فى الحكومة مطلق
اذا شـــاء لم يفعل وان شـــاء يفعل

وما أعتقد أن شاعرا فى الشرق العربى فى هذه الفترة قاوم السلطان هذه المقاومة أو عارض الحاكم الظالم على هذا النحو

وقد كان الزهاوى حفيا بنظريات الكون والوجود والجاذبية والنسبية والتطور والفلك والكهرباء . وضرب فيها بسهم وافر من منظومه ومنثوره .

وقد درس الزهـــاوى نظريات داروين فى التطور ونيوتن فى الجاذبية وانشتين فى النسبية وضمن شعره هذه الاراء . وهو أول شعراء العرب الذين عنوا بهذه الموضوعات .. بل هو أول من أدخل المصطلحات الحديثة فى الشعر العربى فترددت فى أبياته كلمات الاثير والالكترون والبروتون والكهرباء . وكان ذلك منذ أكثر من خمسين عاما .

وقد قال ناقدوه انه ما أن يقـــرأ حكمة أو نظرية أو رأى مستحدث حتى يعمـــد الى قلمه فيدخله فى شعره . وقالوا ايضا انه ليس للزهاوى رأى جديد فى كل ما قاله من شعره . وانما كان ترديدا لما كان يقال فى صـــحف مصر من أحاديث سلامه موسى وطه حسين وهيكل وغيرهم من المجددين .

ويصف الزيات تهالك الزهاوى على التجديد على أنه خوف عاصف من الاتهام بالجمود . كان الزهاوى كشوقى (١) حريصا على متابعة العصر ومسايرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد .. وحس مرهف يأنف التخلف .. ويزيد الزهاوى أن الفجر يزهاه وأن التيه يذهب به .. فيحب الثناء ويبغض النقد . وهو لفرقه من صفه القدم يسبق الكتاب الى التجديد . ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأى الى التطرف ولطمعه فى نباهة الذكر يجرى ميول الخاصة .. ويعارض هوى العامة .. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعا على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم .. وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين وتحقيرا للتأخر بمصادمة مألوف الامه .

ولعلنا نضيف الى هذا أن الزهاوى قد جدد الشعر بادخال عنصر الفلسفة اليه حتى وصف بأن الفكرة الفلسفية هى المادة الاصيلة فى شعره .

ويعزو بعض مؤرخيه نزعة التجديد فيه والدعوة الى الحرية (٢) الى ما تذوقه من نسمات الحرية فى الفترة التى أمضاها فى الاستانة .. حيث عاش فى جو تركيا الفتاة والدعوة الى الدستور وجهاد مدحت باشا فى سبيله .. ولما تتلقفه من نسمات الحرية عن طريق الصحافة العربية فى المهجر ومصر ولبنان .

(١) مجلد الرسالة ١٩٣٧

(٢) سليم طه التكريتي : الكتاب يونيه ١٩٤٩

ولقد كان الزهاوى (١) يحب شعره ويحس به ويراه رفيقه وخليله ويرى فيه عزاءه عند الملمات ومسلية عندما تعتـــوره الهموم .

يا شعر انك أنت صوت ضـــميرى
بيديك حـــزنى كله وسرورى
يا شـــعر أنت بكائى يوم كآبتى
وتبسمى يا شعر يوم حبـــورى
أنا أنت يا شـــعرى وأنت انا فمن
يقرأك يقرأ سيرتى وشـــــعورى

ولقد ظل الزهاوى يكرر آرائه فى كل شـــعره ، ويصر على رأى قاله بالرغم من خصومة الناس له .. وهو فى هذا يجيد اجادة ممتازة فى بعض الاحيان ويكرر نفسه ويستطرد ويبدو مملا وضعيفا فى أحيان أخرى .

وقد كره اللغة التقليدية والمحسنات البديعية واللفظية .. ولم يقف شأن الشعراء المعاصرين له عند المعانى العامة بل خاض معركة السياسة والحياة والمجتمع فى قوة

هذا وقد سببت نزعة الزهـــاوى التجديدية له كثيرا من المتاعب والخصومات ولم يحتمل أهـــل وطنـــه جرأة آرائه

(١) محاضرات ناصر الحانى عن الزهاوى .

واندفاعه فردوا له الصاع صاعين

يا نفس قد سبوك حين نصحتهم
هـذا جزاء الناصحين فذوقى
قالوا اطردوا الزنديق من أوطانكم
ماذا يخاف القـوم من زنديق
قالوا اقتلوه فانما هو مارق
مـاذا يضر المؤمنين مـروق
أنا لست زنديقـا ولا أنا مـارق
حتى يحـل لطفركم تمـزيقى

والزهاوى الشاعر المجدد له فى الحب شعر عميق المبنى جديد فى العرض تتمثل فيه طبيعته الحريصة على أن يقول ما لم يقله الشعراء من قبله :

أول الحب فى القـلوب شرارة
تختفى تارة وتظـهر تارة
ثم يرقى حتى يكون سـراجا
لذويه فيه هـدى وانارة
ثم يرقى حتى يكون مع الايـا
م نارا حمـراء ذات حرارة
ثم يرقى حتى يكـون أتونا
بحراراته تذوب الحجـارة
ثم يرقى حتى يكون حريقـا
فيه هلك لاهـله وخسارة

ثم يرقى حتى يمثـــل بركانا
يرى الناس من بعيـــد ناره
ثم يرقى حتى يكون جحيمـا
عن تفصيلها تضيق العبـــارة

ومن آيات تحديده انه نقل العلم والطبيعة والفلك والكائنات وتعليل الجاذبية الى الشعر . يقول فى قصيدته « سـياحة العقل » .

لا تقبل الاجـــرام عدا
كلا ولا الابعاد حـــدا
العقل يرجع خائبـــا
فيهـا وان لم يأل جهـــدا
مسترشدا بعلومه
فيها اذا ما ضل يهـــدى
والعقل يعلم من سياحته التى أولته مجدا
ان المجـــرة لم تكن الا
عوالم فقن عـــدا
والسحب فيهـا أنجم
من الشمـــوس بعدن جدا
متحركات فى السمـــاء
تخال ان لهن قصـــدا
متجـاذبات لو تخلف
واحـد عنهـا لأودى

وهو يعاود الحديث عن شعره في عديد من قصائد ويطالبك بالانصاف

ما الشعر الاشعوري جئت أعرضه
فأنقده نقـدا شريفا غير ذي خلل
الشعر ما عاش دهـرا بعد قائله
وسار يجرى على الافـواه كالمثل
والشعر ما اهتز منه روح سـامعه
كمن تكهرب من سلك على غفــل

وخلاصة رأيه في الشعر الجديد أن يتحرر بجميع أغراضه من أسر التقاليد الجـامدة ٠٠ وان الاوزان بالنظريات التي وضعها الخليل ليست ملزمة وان التجديد يجب أن يشـمل القوالب والمضمون ٠

الزهاوي الناثر

اريد في هذا الفصل أن أعرض للزهاوي الكاتب .. فقد خلف عددا من الابحاث والدراسات النثرية مما يدعونا أن نحلل معالم كتاباته . ومن هذه المؤلفات رسالة الكائنات (١) في الفلسفة أبدى فيها رأيه الحر في المكان والزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية ورسالة في سباق الخيل (٢) أودعها تجاربه في ركض الخيل . ورسالة في الخط الجديد (٣) وقال عنها: هذا الخط لايشبه الخط العربي ولا الحروف اللاتينية ويقدر ان يتعلمه التلميذ في أسبوع . وهو جميل ويكتب مفصلا من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين . ويطبع مقطعا .. وفيه تسهيل للطباعة .. فان كل حرف منه اذا قلب كان حرفا آخر من الحروف مقام كل حرف بوظيفة حرفين وتعلم ما في ذلك من الاقتصاد .. ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خطا عاما لجميع اللغات . ودروس الفلسفة (٤) التي كان القاها على تلاميذه في

---

١ ـ طبعتها المقتطف بالقاهرة ١٨٩٦

٢ ـ طبعتها الهلال

٣ ـ نشرها المقتطف

٤ ـ القاهرة ١٨٩٤

جامعه الاستانة ورسالة الفجر الصادق فى الرد على الوهابية وقد طبع فيمصر قبل الدستور العثماني ورسالة الجاذبية(١) وتعليلها ورسالة لعبة الداما وتحتوى على ١٥٠٠ لعبة منهـا ٥٠٠ لعبة لاصحابها و ١٠٠٠ من مستنبطاته (وهذه لم تطبع) وكتاب تسهيلقواعد اللغةالعربيةورسالة الجاذبيةوتعليلها(٢) وكتاب المجمل مما أرى (٣) ٠

وليس شك ان كل هذا المحصـول النثرى الضخم يعطي للزهاوى صفة الكاتب ٠ وان لم يصل فيها الى درجة الشاعر التي غلبت على حياته وفنه ٠ ولعـله مما يلاحظ أنه كان فى شبابه يكتب النثر وان كل هذه المؤلفات أو أغلبها طبعت فى الفترة الاولى من حياته وقبل أن يتفرغ للشعر تفرغ نهائيا

يقول الزهاوى (٤) بنيت الادب على أنقاض عبد القـادر العمرى والاخرس وكلاهما من الشعراء الوزانين المقـلدين فلا جزاله في ألفاظهما ولا ابتكار في معانيهما ٠

ويقول الزيات أن الزهاوي كان فى شبابه ينظر فى العلوم الفلسفية الطبيعية وسبيله الى ذلك ما ترجم من المقـالات والكتب ٠٠ ولم يعرف من اللغات غير الفارسية والتركيـة والكردية ٠٠ وانه ألف كتاب الكائنات في الفلسفة ٠ وكتاب

---

١ ـ طبعت ببغداد

٢ ـ بغداد ١٩١٠

٣ ـ مصر ١٩٢٤

٤ ـ رسائل الزهاوى ـ مجلةالكاتبالمصرىديسمبر١٩٤٦

الجاذبية وتعليلها في الطبيعة وخالف به اقطاب العلم . ومن ذلك قوله : أين علة الجاذبية ليستجذب المادة للمادة وإنما هي دفعها لها بسبب ما تسمه من الالكترونات .

وقد عرض العقاد لهذه المسائل الفلسفية التي تناولها الزهاوي في كتبه في مقال له نشر في كتابه ساعات بين الكتب كان قد كتبه عام ١٩٢٧ وفيه يقول : (١) انني اوقر هذا الباحث الفاضل . وأعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته في جهاده . وغبنه بين قومه فلا أحب أن أقول فيه لغير ضرورة من ضرورات البحث مقالا لا يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ماله عندي من القدر والرعاية .

اول كتاب قرأت للزهاوي كان كتاب الكائنات أو رسالة الكائنات لانها عجالة مختصرة من القطع الصغيرة وكان ذلك قبل عشرين سنة (اى عام ١٩٠٧) وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة . ومباحث الدين والفلسفة . فراقني من الرسالة سداد النظر وقرب المأخذ . ووضوح التفكير . والجرأة على العقائد الموروثة .

وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقا صحيحا يذكر القارىء باشارات ابن سينا ويزيد عليهما بالجلاء والترتيب . ثم قرأت للزهاوي شعرا ونثرا وآراء في العلم والاجتماع تدل على اضطلاع واستقلال ونزعة الى الثقة والابتكار . وكان آخر ما قرأت له رسالة المجمل مما أرى ثم شعر ينشره في الصحف المصرية من حين الى حين .

١ ـ ساعات بين الكتب ص ١٩٧ وما بعدها .

٠٠ واذا قرأت مباحث الزهاوى برزت لك ملكته المنطقية لا حجاب عليها ولمست فى آرائه موطن التحليل والتعليل ٠٠ ولكنك تصل فيها الخيال كثيرا والعاطفة أحيانا ٠٠ وتلتفت الى البديهة فاذا هى مجدودة فى أعماقها وأعاليها بسدود من الحس والمنطق لا تخلى لها مطالع الافق ولا مسارب الاغوار ٠٠ فهو يريد أن يعيش أبدا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار لا تنطبق فيها الاجفان ٠ لا تتناجى فيها الاحلام وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا وشمسا ٠ ولكنها كذلك ليل وغيهب لا تجدى فيها الكهرباء ٠

وهكذا يعارض العقاد آراء الزهاوى فى العلم ٠ وهو ماكان موضع النقد عند كثير ممن أرخو للزهاوى أو كتبوا عنه ٠ يقول سليم طه التكريتى المحامى ببغداد (١) لقد بلغ من هوسه بهذه العلوم أن راح يناقض البعض منها ويرد على أصحابها٠٠

ولكن العقاد لا يلبث أن ينصفه فيقول : الاستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع ٠٠ وانه يصيب فى تفكيره ما طرق من المسائل التى يجترأ فيها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر الى البديهة والشعر ٠ فمن ينشده فلينشده عالما ينظم أو يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصغاء اليه ٠٠ واقبال عليه فى هذا المجال ٠

والزهاوى الى هذا صاحب قلم وناثر ولغته قوية ممتازة ٠٠ وقد كتب فى الهلال (نوفمبر ١٧٢٦) تحت عنوان هل تدوم

١ ــ يونيه ١٩٤٩ مجلة الكاتب المصرى

نهضة الاتراك .. فقال : ان الرماد الذي تراكم في مكان الحريق الهائل لم يخل من جمرة اذا نفخ فيها النافخ تأججت من جديد فكانت قوة كبيرة نستطيع عمل شيء جلل . وهكذا كان الامر فان الغازي مصطفى كمال نفخ في درع الامة التركية من روحه .. تلك الروح الكبيرة .. وهو بمعزل عما كانت تكيده له الخلافة في دارها حتى احياها وراب صدعها وسترد بما جنده من فلول الجيش المدحور .. وهو لايملك يومئذ لا عزمه ما احتلته اليونان من بلادها وكان الفوز باهرا ..ويعطي هذا النموذج رتابة ذهن الزهاوي وجمال أسلوبه النثري .

ويعزى اتجاه الزهاوي الى الفلسفة والى ادماجها في شعره ونثره انه كان مدرسا للفلسفة الاسلامية في الاستانة . هذا فضلا عن انه بطبيعته فيلسوف فيه حب للجدل والمناقشة .. وفي أسلوبه ذكر الاسباب والنتائج .. ولقد كانت لغته دائما اقرب الى لغة العلم . وقد أحب مجلة المقتطف لموضوعاتها العلمية . ومؤلفات فانديك في الفلك وكتب الدكتور ورتبات عن الفسيولوجيا والتشريح . كما انه قرأ مترجما الى التركية البؤساء لفكتور هيجو كما قرأ أناتول فرانس وشكسبير وجوته وتولستوي . وكان معجبا بشاعر الاتراك الكبير نامق كمال .

ومما يتصل بعمل الزهاوي الناثر أنه عين في عهد الاحتلال رئيسا للجنة تعريب القوانين التركية فعرب ١٧ قانونا بين صغير وكبير .

..

الزهــاوى والمــرأة

من أبرز معالم حياة الزهاوى وشعره اشتراكه فى قضـــية المرأة ودعوته الى حريتها وتعليمها وســـفورها ‥ وهو أول شاعر عربى يعطى هذه القضية قدرا ضخما من الاهتمام ويتكلم عنها بحرارة . ولم يسبق فى ذلك الا بقاسم أمين . ولقد بدا الزهاوى دعوته لتحرير المرأة منذ عام ١٩١٠ وقد تحمـل فى سبيل ذلك مشقة كبرى وواجه هجـــوما صاخبا من معسكر الرجعيين والمتزمتين . فقد كان لدفاع (١) الزهاوى عن المرأة فى المجتمع العراقى وقعا أشد من وقع كتابات قاسم أمين فى مصر وأبعد منه أثرا ‥ فقد أنفــق نصف قرن أو يزيد وهو يدافع عن المرأة ويوالى حملتــه بايمان وحــرارة . وقد طالب الزهاوى بتعليمها وسفورها ومساواتها بالرجل فى بيئة كانت تسام فيها المرأة كما تسام الانعام . وقد نقد الحياة الزوجية فى البيئة العربية وهاجم الطرق الخسيسة التى يجرى الزواج بموجبها وآمن بأن الحجاب من أسباب تأخر المسلمين ‥ ومن جملة شعر الزهاوى يظهر انه عالج خمس قضـايا للمرأة ‥ السفور ومكافحة تعدد الزوجات ونقد طريقة الزواج والدعـوة

---

١ ــ سليم طه . مجلة الكتاب يونية ١٩٤٩

الى تعليمها ومشاركتها فى الحياة العامة ومساواتها بالرجل يقول :

انما المرأة والمرأ سواء فى الجدارة
علموا المرأة فالمرأة عنوان الحضارة
يرفع الشعب فريقان أناث وذكور
وهل الطائر الا بجناحيه يطير
كيف يسمو الى الحضارة شعب
منه نصف عن نصفه مستور
ليس ترقى الابناء فى امة ما
لم تكن قد ترقت الامهات
اخر المسلمين عن أمم الارض
حجب تشقى به المسلمات
لايقى عفة الفتاة حجاب
بل يقيها تثقيفها والعلوم
هذبوا ارواح العذارى لتبقى
سالمات من العذارى الجسوم
اسفرى فالحجاب ياابنة فهد
هو داء فى الاجتماع وخيم
انزعيه ومزقيه فقد أنكره العصر ناهضا والحلوم
اسفرى فالسفور للناس صبح زاهر والحجاب ليل بهيم
من بعدما انتظرت حقابا
ثارت فمزقت الحجابا

عـربية عرفت أخيرا
كيف تنبـذ ما أرابا
كان الحجاب يسومها خسفا ويرهقها عذابا
وسيطلب التاريخ من ناس
لها ظلموا حسابا
سألت لها حرية منهم
فما لقيت جـوابا
وليس من الدين الحجـاب وانما
رجعنا الى أحكامه نتفهم
فان كان نص قائل بوجوبه
ولا نص فيه حسبما أنا أعلم
نأوله حتى نوفق بينه
وبين طريق العلم فهو المقدم
ليس ترقى الابناء فى أمة ما
لم تكن قد ترقت الامهات
أخر المسلمين عن أمم الارض
حجاب تشقى به المسلمات

وهذه النماذج منتقاه من شعره على مراحل وفترات مختلفة من حياته .

ويسجل الزهاوى فى بعض رسائله أثر قضية المرأة فى فيقول : وعزلت عن وظيفتى فى كلية الحقوق بسبب دعوى

عن حقوق المرأة .. وانى انا الذي نظمت قصيدة امرأة الجندي يوم لم يكن في بغداد شاعر يعرف الشعر في اصلاح المجتمع .

ويقول الزهاوي في موضع اخر من رسالته مصورا أثر شعره في المرأة في ولاية ناظم كانت جريدة المؤيد في مصر قد نشرت لي مقالة أدافع فيها عن حقوق المرأة فقامت حول هذه المقالة ضجة كبيرة وأخذ المتعصبون يرغون ويزبدون يلمزونني بالسب واللعن . وكان التعصب في بغداد يومئذ ذا صولة فلم يسع الوالي غير عزلي من وظيفتي ارضاءا للرأي العام .

كما أدى قيام القيامة ضد الزهـــــاوي عليه الى لزوم داره خوفا من القتل بعد أن تحرش به دهماء الشعب .

ولقد كان لدعوة الزهاوي أثرها فقد لقيت صدى ايجابيا بالرغم من حملة خصومة عليه من أجلها .. وفتحت الباب أمام تعليم الفتاة في العراق .

فنـــون شعره

اصدر الزهاوى ديوانه عام ١٦١٤ (طبعه خيرالدين الزركلى بالقاهرة) وقد ضم شـــعره من عام ١٣٠٧ – ١٣٤١ هجريه (١٨٨٨–١٩٢٤) فى خلال ستة وثلاثين عاما وقد كتب على صدره هذه البيت

اذا الشعر لم يهززك عند سماعه
فليس خليقا أن يقال له شـــعر

وقد ضم الديوان خمسه عشر بابا تعطى صـورة التجديد وحسن التنسيق عند الزهاوى .

- الشهقات : فى الغرام
- هواجس النفس : فى مطالب فلسفية
- احاديث شجون : فى القصص
- الدم والنار : فى الحروب
- المشاهد : فى الوصف
- الدموع الناطقة : فى المراثى
- أنين المجروح : فى البث والشكاه
- القارعات : فى الحث على التقدم
- الشعر والشعراء : فى القريض والشاعر
- الليل والنهار : فى الاجتماع

• وحي الضمير : في الوطن
• المرآة : في النساء
• فلق الصباح : في الترحيب
• بقايا الشفق : في مطالب شتى
• الخطرات : متفرقة

وتعطي هذه الابواب صورة شعر الزهاوي كله فقد اصدر هذا الديوان وهو في سن الستين . وقد استطاع ان يضرب في جميع مجالات الشعر وفنونه والوانه محبا ومصلحا اجتماعيا وسياسيا وراثيا ووطنيا .

وقد ظل الزهاوي في شعره نابض الحرارة حتى بلغ سن السبعين .. وشارك في محاربة الظلم والاستبداد والرغبة في رقي الشرق ومقاومة الخرافات التي دخلت الى الاسلام ومقاومة الخرافات التي دخلت الى الاسلام ومقارعة الحجاب وسلطان رجال الدين وان كان كل ما قاله لم يكن جديدا .. الا انه سبق زمنه بمائة عام . وتقدم الشعراء جميعا في هذا المجال .

وفي الزهاوي روح من دعوات جمال الدين الافغاني ومحمد عبده للاصلاح السياسي والديني وفيه من الكواكبي حملته على الاستبداد .

والزهاوي يرى كل قصيدة هي القصيدة الاولى والاخيرة فلا يبالي أن يكرر فيها ما قال في قصائد أخرى

ويقول في مقدمة ديوانه : ربما عرف المطالع شعري حالة بلادي السياسية ودرجتها من الرقي في السنين التي عشت

فيها وعرف عن حياتي ما لم يعرفه من التراجم الطويلة»

واعتبر شعر الزهاوي دعوة الى التحرير والتجديد وثورة دائمة على الجمود والتقاليد والقيود الفكرية والاجتماعية فقد كان يؤمن بأن الشرق لايتم له التقدم الا اذا تحرر من هذه القيود التي غلت تفكير أبنائه

وبيتاه هذين يرمزان الى مذهبه واتجاهه لله :

سئمت كل قديم عرفته في حياتي

ان كان عندك شيء من الجديد فهات ،

غير اننا اذا ذهبنا نقارن شعر الزهاوي في ديوانه هذا مع ديوانه الاول الذي أصدره عام ١٩٠٧ اى قبله بأكثر من خمسة عشر عاما وهو الكلم المنظوم نجد فارقا بعيدا • فقد كان ديوانه الاول مجموعة من القصائد التي قالها أيام الاستبداد ونشرها في الصحف المصرية بتوقيعات رمزية خوفا من السجن •

وكان الزهاوى راضيا عن الاتراك والسلطان في أول الامر ثم تغير رأيه عندما بدأ الاحرار الاتراك دعواهم فأصبح موضع رقابة شديدة مما حمله الى العودة الى العراق مخفورا •

ولما رأيت الغدر في القوم شيمة

وان مجال الظلم فيهـا يوسع

وان كلام الحق يتبعد جانبـه

وان أراجيف الوشـاية تسمع

خشيت على نفسي فأزمعت رجعـه

الى بلدى من قبـل انى أصرع

وهل راحة في بلدة نصف أهلها
على نصفه الثاني عيـــون تطلع
تراقب أفعالي وكل عشية
الى «يلدز» عني التقارير ترفع

ويقول الزهاوي في المقارنة بين الشرق والغرب :

الشرق ما زال يحبو وهو مفتمض
والغرب يركض ونبا وهو يقظان
والغرب أبناؤه بالعلم قد سعدوا
والشرق أهلوه في جهل كما كانوا

الزهاوي شاعر القومية العربية

الزهاوي «شاعر الحرية» ما في ذلك شك ولا ريب .. لقد عاش للحرية حياته يوما يوما وساعة ساعة .. كان كل شعره وقودا لهذه الشعلة المقدسة . شعلة الحرية . فقد كان يحب الحرية حبا يفـوق كل حب ويدعو اليها ويطالب بها ويفني لها . وهو اذا حرم منها ضاق بها وظل يصرخ صرخاته القوية الجبارة .

والزهاوي شاعر القوميةالعربية غير مدافع .. حمل لواءها ودعا اليه منذ خمسين عاما وضج بالدعاء .

ولقد عاش الزهاوي في عصر عبد الحميد .. وعاداه .. وأرسل اليه قصيدة صائحا بدعـوة الحرية في وجه الرجل المستبد الذي كانت الناس تخشاه وتحمل في سبيل صيحته من أذى وسجن ونفي واخراج .. ولكنه ظل مؤمنا بدعوته .. ومضى مواصلا اياها .. فاذا ضاقت به العراق عن أن يغـرد فيها كلمة الحرية أرسلها بالبريد الى مصر لتنشر في صحفها رمضاء مستغار .

واذا قلبنا ديوانه وجدنا شعر الحـرية هو أغلب شعره وأعمه ، وهو أصدق شعره وأشده أثرا في النفس

أبناء دجلة والفرات نيـام
عن حقها وتسرها الاحـلام

واذا الحقائق لم تجد في امه

سندا تقوم مقامها الاوهام

ان العراق به يعيش لشقوة

شعب يسام الذل ثم يسام

العوه حتى صار فيهم طابعا

من طول ماصفعتهم الايام

او كلفوا مشيا على راسهم

لمشوا كان رؤوسهم اقدام

فهو يدعو أهل العراق الامجاد في صيحة جبارة قوية ان هبوا ولا تحتملوا الذل ولا ترضوا به ٠

لا يبتني استقلاله شعب له لم يستعدا

شعب اذا لم تستبد به حكومته استبدا

شعب يلم بشره وذا الم فلا مردا

شعب يظن الجد هزلا كله والهزل جدا

شعب يعرض للطام بكل يوم منه خدا

ولكن الشعب كان قوى الشكيمة لم يغفر للاستبداد ذله فثار ثورة حامية حرقت على الدخيل الاخضر واليابس

وهو لا يدعو بغداد وحدها الى الحرية ولكنه يدعو الشرق كله ٠

عظيم على الافكار في عصرنا الحجر

اما كل انسانه بآرائه حر

وهل فقه الشعب المريد لانطلاقه
من الاسر ان الحجر فيه هو الاسر
وهل نافع تحريره من اساره
اذا لم يكن في راسه حرر الفكر
وأي رقي في الحياة ميسر
لقوم يقول الحق ما أن لهم جهر

يرومون للافواه كما يحنفهم
وذاك لعمري ثم ذاك هو النكر
اذا الشرق لم ينفع من القطر غله
باكباده الحرى فلا نزل القطر
لقد طال ليل الشرق بعد نهاره
أما بعد ليل الشرق محلولكا فجر
ولابد من أخذ العروبة حقها
وان حالت الاقدار أو خذل الدهر

وهو في هذا يدعو إلى القومية العربية مؤمنا بها وكلما جاءت المناسبات ذكر العراق شعبه المكبل بالقيود ودعا الى الحرية في قوة

عيد ألم على يأس بمملكة
وليس فيه لجرح سال تضميد
حيث النخيل بسعيه من تزلفه
وعن مواطنه للمحر تشريد

الحق يوطأ بالاقدام مستخفا

وما هنالك يحمي الحق صنديد

نالت مطالبها الاقوام قاطبة

ومطلب العرب المهضوم مردود

وما بذل بلاد العرب من جدل

ولا بذل بلاد العرب مسعود

وهكذا ينكشف الزهاوي في كل شعره على انه ليس شاعر الحرية فحسب ولكنه شاعر القومية العربيه لما يؤمن به العرب ويعملون لها .

وهو محب للوطن ، صادق الحب ، يكره هوانه و يواجه حكامه بالنقد

افديك يا وطني نسمات بارضه

ونزحت فيه بانفس وعلام

بالذل لا ارضى وان سمت به

روحي وارضى بالحسام زؤاما

حتى الذين اذا الهوان اصابهم

تخذوا الاباء من الهوان عصاما

يا قومنا لا نفع في احلامكم

فخذوا الاباء من الهوان عصاما

يا قومنا لا نفع في احلامكم

فخذوا الحقائق وانبذوا الاحلاما

انى لاربأ ان اكون مجبنا

في الحادثات ولا اكون حساما

ولقد يريد الظالمون لنفسهم
بالظلم من شر يلم سلاما

ولست أعتقد أن أدب القوة يمكن أن يؤدى بأقوى مما أداه الزهاوى فى قصائده الحماسية الثائرية التى دعا فيها الى الحرية ..

فهو حامل مشعل الحقائق يدعو الى نبذ الأحلام والاوهام . وهو داع دائما وأبدا الى الاباء من الهوان والى نبذ الرضا والتسليم والى قبول الحمام والموت دون الاوطان وحرياتها وكراماتها .

وهو فى أبان الحكم العثمانى يقذف الدولة العثمانية بأسواط ملتهبة من شعره يشق بها ظلمات الليل البهيم الذى يعيش فيه العرب

وما هى الا دولة مستعبدة
تسوس بما يقضى هواها وتعمل
فترفع بالاعزاز من كان جاهلا
وتخفض بالاذلال من كان يعقل
الا انما بغداد قد أصبحت بهم
يهددها داء من الجهل معضل
وقد عبثت بالشعب أطماع ظالم
يحمله من جوده ما يحمل
فتعسا لقوم فوضوا أمر نفسهم
الى ملك عن فعله ليس يسأل

فيا ملكا فى ظلمــــه ظل مسرفا

فلا الامن موفور ولا هو يعــــدل

ولعلها أول صيحة فى الشعر العربى لمواجهة ظلم عبدالحميد يرتبط فيها الزهاوى بصاحبه الكواكبى صاحب كتاب مصارع الاستبداد .

نحن فى غفله نيـــام وعنا

نائبات الزمان غير نيـــام

نحن فى دوله تدار نهـــا الله

تبيح المحظور للحـــكام

وعدوها بالاصـــلاح جم ولكن

لا يجوز الاصـــلاح حد الكلام

نحن قوم قضت ارادة شـــخص

واحد أن نعيش كالانعـــام

ايها الظالم اغتصبت حقـــوقا

قد حبـــاها الانام رب الانام

وما اظن أن السلطان عبد الحميد واجه من الهجـــوم بمثل ما واجهه به الزهاوى شاعر الحريه والقومية العربية

قد أسمعتك أنينهـــا الاوطان

بضعيف صوت ملؤها الاشـــجان

مدت اليك يد الشـــكاة لانهـــا

قد عاث فيها الظلم والعــــدوان

أدرك بها الضعفاء واســـتعجل فقد

عز النصير وقلت الاعـــوان

ان كنت تنصرها وتحمي حوضها

عن غاصب فلقد أتى الابان

أدرك بنصر أمر قومك أنهم

ظلموا فريع الشيب والشبان

وهو مايزال يحمل على الظلم حملات متعددة .. لايتوقف ولا يتراجع .. وانما يمضي بقلمه الثاري يعدد اثام الظلم وشره ويدعو الى العدل الذي هو الحريه

خفف من الظلم ابقاء وتهوينا

فالظلم يقتلنا والعدل يحيينا

يا مالك الامر ان الناس قد ضجروا

عامل برفق رعاياك المساكينا

لهوت عنا بما أوتيت من دعة

فأبيض ليلك واسودت ليالينا

ليست طريقك محمودا عاقبتها

فابدأ اذا شئت في الاحوال تحسينا

وهو من دعاة السلام . يكره الحرب وينفر منها

الحرب للمتهوسين

هي الطريق الاوعر

الحرب لولا أن تحس ضرورة لا تشهر

تفني الذي هو ظافر

وتذل من لا يظفر

في الحرب لا تلقى من الفئتين من لا يخسر

فاذا أهل الدستور الجديد عام ١٨٠٨ استقبله الزهاوي

فرحا به مغتبط موقد حياة جديدة للعرب وباب جديدا للحرية

البرق اهدى لنا بشرى بها امنت
أرواحنا بعد طول الخوف والرهب
بشرى كما تبتغي الآمال صادقة
احبها الناس من قاصى ومغترب
صاحت لفرحة هذا العيد أفئدة
كانت تئن من الارزاء والنوب
صاحت سرورا وكانت قبل فرحتها
تدعو على كربها بالويل والحرب

ويمضى الزهاوى داعيا الى الحرية مؤمنا بها لاينخنس عن تركيب فاذا بدا العرب يتحررون من نير الترك ومضى الترك يكيدون للعرب واجههم بالحقائق

وما فئة الاصلاح الا كبارق
يعز بالقطر الذى ليس ينزل
لهم اثر للجور فى كل بلدة
يمثل فى أعمالهم ما يمثل
اذا نزلوا أرضا تفاقم خطبها
كأنهم فيها البلاء الموكل

وتبلغ الزهاوى قمة ايمانه بالحرية فى قصيدته الذى يرثى بها من شنقهم أحمدجمال باشا السفاح الوالى التركى على سوريا من أحرار العرب

على كل عود صاحب وخليل
وفى كل بيت رنة وعويل

وفى كل عين عبرة مهـــراقة
وفي كل قلب حسرة وغليـــل
عـــلاها وما غير الفتوة سلم
« شباب تسامى للعلى وكهــول »
كأن وجوه القـــوم فوق جذوعهم
نجوم سماء فى الصـــباح أفول
كأن الجذوع القائمات منـــابر
علت خطبـاء عودهن تقـول
لقد ركبـــوا كور المطايا يحثهم
الى الموت من وادى الحيـاة رحيل

اجالوا بهاتيك المشـــانق نظرة
يلوح عليها اليأس حين تجـــول
وبالناس ان حفـوا بهم يخفرونهم
وقوفا وفى أيدى الوقوف نصـول
دنوا فرقوها واحدا بعد واحـــد
وقالوا وجيزا ليس فيه فضـــول
فمن سابق كيلا يقـال محـــاذر
ومستعجل كيلا يقال كســـول
ولله ما كانوا يحســـون من أذى
اذ الارض تنـــأى تحتهم وتزول
واذا قربوا منهـا واذ صـعدوا بها
واذ مس هاتيك الرقاب حبـــول

وما هي الا رجفـــه تعترى الفتى

مفاجاة والرأس منه يميـــــل

مشوا في سبيل الحق يحدوهم الردى

وللحق بين الصـــالحين سـبيل

ستبكى على تلك الوجوه منـــازل

وتبكى ربوع للنعـــل وطلول

وأعظم بخطب فيه للمجد شـقوة

وفي جسد العليـــاء منه نحول

سرت روحهم تطوي السماء لربهـا

وما غير ضوء الفرقدين دليـــل

ولله عيدان من الليل أثمرت رجالا

عليهم هيبة وقبـــول

هوت أمهم ماذا بهم يوم صـــلبوا

على غير ذنب كي يقال دخـــول

سوى أنهم قد طالبـــوا لبلادهم

بأمر اليهم فخره ســـيؤول

ونادوا باصلاح يكون الى العـــلى

وللنجح والعمران فيه وصـــول

فما رد عنهم بالشفاعة عصبة

ولا ذب عنهم بالســـلاح قبيل

وهكذا يصل الزهاوى الى القمة فى ايمانه بالحرية ودفاعه عن القومية العربية

وهو لم يقف عند حد مقاومته للعثمانيين ولكنه ظل يقاوم الانجليز في العراق في كل مناسبة يحس فيها بأنهم يقاومون حرية الشعب أو يغصبون حقه الشرعي

تلغى معـــــاهدة وأخرى تعقد
والشعب يستفتى لهـا ويهـدد
والشعب يطرى للجسـالة خنجـرا
في صـــدره عما قريب يغمـد
وكان يوم الغاصـــبين لحقهم
ليل وهذا الليـــل بحر مزبد
والشعب بالقيد الثقيــل مكبل
حتى يكاد اذا تحـــرك يقعد
للبعض كـــوخ واطيء ولبعضهم
صرح كما شـــاء النعيم ممرد

والزهاوي بعد هذا كله بشر فاذا أخذ عليه نقاده ضعفا في بعض مراحل حياته أو موقفا هنيا فانما يجب أن نذكر انه كان يعيش في فترة من أحلك الفترات التي كان يمر بهـا الشرق حيث الاستبداد والاستعمار والبلاء كله يصب على الامةالعربيه من الترك والانجليز على السواء وان روح المقاومة الفعلية لم تكن قد أخذت بعد صورتها الحية القوية التي نراها اليوم . فهو بالنسبة لجيله في دعوة الحرية والقومية العربية سباق متقدم من جيله وقد رجحت حرارة ايمانه وصـــدق كفاحه بما أخذ عليه رجحانا كبيرا

بغداد في شعر الزهاوي

احب الزهاوي بغداد حبا قويا عميقا صادق لم يتغير ولم يتحول وقد سجل في شعره في عدد من المواضع شغفه بالعراق وحبه له ولكن حبه لم يكن تقليديا يصوغه مدحا . وانما كان حبا بصيرا يحمل معنى الايمان بالوطن . والدعوة الى تحريره وتخليصه من قيود الفكر وقيود الاجتماع وقيود السياسة .

وقد كان يكره بغداد أحيانا حين كان يحكمها المستبدون من الاتراك :

كراهيتي لبغداد في شدة وازدياد
ابدل لي قربها بالبعاد
كرهتها نفسي ومل فؤادي

وهو في هذه الفترة يسميها دار الظلم والجهالة والفساد
ويقول انه في كل يوم مصيبة تتجدد ومشكل يتولد

أين ذهن قد كان يشبه برقا
سرعة في فهم الامور وخفقا
حرقته نار التوقد حرقا
انك اليوم لو تفتش تلقى
جمرة منه في ركام الرماد

ذلك أن الزهاوى الانوف المعتز بشخصيته كان يود أن يختار لعمل ممتاز يليق بمكانته وشعره .. فهو فى غير مكانه ثم هو يلقى حملات الخصوم من حوله فلا يلبث أن يقول :

سجن بغداد فى الحقيقة قبر
موحش فيه تدفن الاحياء .
حجرات فى جوفها ظلمات
فهى فى الليل والنهار سواء

وقد ظل يحس بأنه دون قدره .. وانه لم يعط ما كان خليقا به .. فحمل على العراق فى صورة حكامها من العثمانيين

اننى اليوم فى بلادى أسير
ليت شعرى متى يكون فكاكى

وفى ابان هذه الازمة النفسية فكر فى الهجرة الى مصر فنظم قصيدته الخماسية

« أنت مصر ملجأ الاحرار » وفيها يقول :

شاعر بالعراق ينظم شعرا
فيرى دون نشر ما قال عسرا
فيهادى به على البعد مصرا
حيث يلقى الشعر المهذب نشرا
ان مصر ريحانة الامصار
تبلغ النفس عند مصر مناها
طيب الله بالسلام ثراها
بلدة حبيب النجاح سقاها

يجد الحر مامنـــا فى ذراعه
أنت يا مصر ملجــأ الاحــرار

كان ذلك في أوائل القرن العشرين .. عندما فكر الزهاوى في الهجرة من بغداد الى القاهـــره . وخرج غاضبا ولكنه لم يلبث أن عاد بعد قليل الى بغداد .

وكنت هبطت قبـــل سنين مصرا
فلم أصــــدأ وفضلت الايابا
ذكرت مواطنى وذكرت أهــــلى
وليلى والصبـــابه والشـــبابا
وقلت لقد نأت بغــــداد عنى
فليت الدهـــر يمنحنى اقترابا
ولو أنى رجعت الى بـــــلادى
لقبلت المنـــازل والترابا

وهكذا يبدو حبه لبغداد قويا دافقـــا حتى انه لا يلبث أن يقول :

انى اذا احتاج العراق فبالحياة له أجود
ان لم أذد أنا عن حقوق للعراق فمن يزود

ثم يعتدل رأيه في العراق بعد أن تتكشف غمة الحـــكم العثمانى ويبدأ الحكم الوطنى بعد ان يلى الملك فيصل الحكـم فى العراق :

قد ذقت صابا فى حياتى بالعراق ، وذقت شهدا
ولقيت فيما قد لقيت بموطنى بخسا وســـعدا
ورأيت بعد المد جــزرا ثم بعد الجـــزر مدا

وقد شارك الزهاوى فى الحياة السياسية فى العراق مشاركة فعلية حتى ليشغل ديوانه جانبا كبيرا من صور هذه الحياة .. صور فترة الظلام التى سادت العراق أيام عبد الحميد ثم كيف تكشفت السحب عند بدأ عهد الدستور فى الدولة العثمانية ثم كيف بدأت العراق تقاوم الاحتلال البريطانى فى العراق ويقيم الحكم الوطنى فيه

ونظم الزهاوى شعرا فى استقبال فيصل وفى استقلال العراق وفى الحياة النيابية وشارك فى استقبال غازى وبدء حكمه .

وقد سجل الزهاوى فى مذكراته التى عرفت باسم رسائل الزهاوى حالة العراق عند مولده عام ١٨٦٣ فقال : كان عدد سكان بغداد فى العهد الذى ولدت فيه مائتى الف نسمة تقريبا وحالتها الاجتماعية يومئذ منحطة ولا غاية لاكثر رجالها الا التزلف الى الحكام الاتراك ووولاتهم ولا منافسة الا فى الرتب والالقاب .

وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٣٢ (وقت تحرير مذكراته) ٣٥٠ ألفا وكانت العراق فى رخاء غير ان الجهل كان يسود أكثر أهله ولم تكن فيه يومئذ هذه المدارس المدنية المنتشرة فى أنحائها الا الكتاتيب والمدارس القديمة الدينية وكان التعصب شديدا .

وفى بعض شعر الزهاوى يذكر العراق فيقول :

أنا والحق في العراق مضـــاعان

وما فيه غيرنا بمضـــاع

واذا جرت البقاع شـــقاء

لمقيم فتلك شر البقـــاع

وقد صور الزهاوي بغداد في أكثر صورة جميلة رائعـــه مسجلا انها هي التي أوحت اليه الشعر :

هنالك في بغداد على ضفة دجلة سماء صافية زرقاء تلمع في ليلها النجوم فرادى وازواجا واشـــتاتا وركاما وأرض خضراء أديمها هي منبت جسدي وعقلي وأصحاب يوالون وأعداء يناوءون وجهاد مستمر وآمال بيض ويأس أسود .. وفساد في النظام وعادات سيئة تضر بالمجتمع ونفس لي حرة لا تقيم على الضيم كل ذلك قد أنطقني شعرا هو شعور كان يجيش في نفسي قبل ان إنطق به .

بين الزهاوى وخصومه

عاش الزهاوى حياته فى حرب متصلة بينه وبين خصومه هو بعناده وجرأته واندفاعه فى اعلان الرأى الجرىء وخوض معارك الحرية ومهاجمة العـــادات المألوفة يثير فى كل يوم خصومة مع الحكام والـولاة ورجال الدين والمحافظين . ولم يكن الزهاوى يصبر على النقد أو يبتسم له أو يســخر منه . وانما كان يواجهه فى غيظ وكراهية وألم . يبلغ به أحيـانا حد البكاء .. وقد يدفعه الى التفكير فى الهجرة والخروج من ارض الوطن .

وقد احتال لاعلان آرائه بكل وســيلة .. كان ينشر آرائه وقصائده بتوقيع رمزى .. وكان ينشرها فى غير صــحف العراق .. ولكنه لم يكن يتنازل عن تصــميمه وهو لم يعش يوما دون معارك أو خصومات مندفعا فى حماســة وعاطفــة وعناد .. وقد سجل انه كابد فى حياته مزيدا من الشــقاء والاضطهاد . وأنه رأى عادات سيئة وفساد .. وأن نفســه الحرة دفعته الى أن يقاوم هذا كله ويعمل على ازالته . وقد شغل الرأى العام بآرائه الجديدة الجريئة فخلق خصــومات ناقده كانت تواليه بالتقريع والهجاء .

وقد صور الاستاذ ناصر الحاني في محاضراته عن الزهاوي هذا الجانب من حياته فقال : وأغرب ما في أمــره ان اندفاعه المشهور وحماسته التي جاز خبرها حــدود الرافدين ٠ وقد اعتراها صمت طويل وصحب هذا صــخب عليه ٠ وتقـول متضارب في وطنيته وقوميته ٠ وقد عزز هذا التقول م اسنده السلطة المحتلة من مناصب للزهاوي قد لا تكون أعلى منه مقاما ولكن الظروف التي عهدتها اليه نابية جائرة فصــــارت وبالا عليه ٠ وظل في حيرة من أمره وصار الناس ينظرون اليه بعين الشك والارتياب ولا يطمئنون اليه فكثر أعداؤه ومنــاوموه وكثر الذين يريدون أن يوقعوا به ٠

ولم يكن ليحتمل ما وقع له فظل مضطرب يخشى النــــاس ويتوهم أنهم سيوقعون به لا محالة ٠٠ وكانه أدرك فشــله بالمشاركة بأقسى محنة عرفتها (١) بلاده ٠ فحـــاول أن يرود بالتقاليد التي رزح فيها الناس والمشــكلات الاجتماعية التي تحفهم فحمل على العقائد الباليه ٠ ودعا الى التحرر الفكري ٠ ومساواة المرأة بالرجل ٠ ولم يكفر هذا سيئته عند الناس ٠ فقد حاول أكثر من مرة أن يهجر العراق بعد أن توالى عليــه النقد والتقريع ٠٠ فقرر السفر الى سوريه بعد سنتين عضت على الثورة ولكنه لم يسافر الى سوريا وسافر الى مصر ٠

---

(١) ثورة العراق عام ١٩٢٠

وهو فيما يتصل هذا قال قصيدته :

سأرحل عن بغداد رحـــلة عائف
فقد طال في دار الهـوان قعـودي
وأفرح من آلي ومـــالي وموطني
وما كان لي من طارق وتلبـــد
ولم في عمـــرى كبغداد منزلا
به العلم لا يجزى بغير جحـــود
رأيت بها بؤسا وشــاهدت نعمة
فلم أسترح من شـــامت وحسود

يقول الاستاذ ناصر : ولم يستطع الزهاوى أن يطيل مكثه خارج العراق فكانت غيبته استجماما فصدفت الناس عنه قليلا فاستطاع بعد عودته أن يخوض غمار الاحداث العـــامة وأن يوقف نفسه لها فيثيرها ضجة على الحكومة .

والواقع أن الزهاوى كانت له مع أهل وطنه مواقف لعلهـــا هى التي دفعتهم الى الحمـــلة عليه . ولعلها هى التي جعلته يسرف في الدعوة الى التجديد والحرية وتحرير المرأة .

ومن أهم هذه المواقف : مديح الزهاوى للسلطان عبدالحميد أولا ثم حملته عليه .. وفي ديوانه الكلم المنظوم قصيدة يقول فيها :

لسلطاننا عبد الحميد ســـياسة
طريقتها في المعضـــلات هى المثل
ماذا على الســـلطان لو أجرى
الذى يشتاقه الاحرار من اصـــلاح

سللت لنصر الدين سيف وعزمه

فللت به ما لم يكن فيه سهلا

فجهزت جيشا للجهاد عرمرما

قهرت به ذاك العدو الذى ولى

ومن هذه المواقف قصيدته فى مدح الانجليز والتى جعل عنوانها ولاء الانجليز (١) وفيها يقول :

وجدت الانجليز أولى احتشام

أباه الضيم حفاظ الزمام

أحب الانجليز واصطفيهم

لرضى الاخاء من الانام

ولقد كان لهذه القصيدة أثر مظلم شديد الظلمة على حياة الزهاوى فقد لحقه عارها طوال حياته وكانت كما قال الاستاذ ناصر من أسباب حملة خصومه عليه وهجرته .

وقد كتب الزهاوى فى رسائله (٢) معلقا على هذا الحادث الخطير فقال : لما ذهبت الى الاستانة واختلطت بالترك الفتيان أبعدت بالتجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعرة فى أمهات الصحف المصريه . وقد ذهبنا فى حرب الانجليز والبوير جماعة من الترك الاحرار نتمنى للانجليز الفوز فى محاربتهم وذلك بقرار من الحزب المناوىء لعبد الحميد .. يريدون بذلك أن يعضدهم الانجليز فى طلب الدستور . وكتبت نظمت لهذه

١ ــ ديوان الكلم المنظوم

٢ ــ الكاتب المصرى ــ ديسمبر ١٩٤٦

الغاية قصيدة أمدح فيها الانجليز وأشدو بقوة أسطولهم . وقد نشرت فى أول ديوانى (الكلم المنظوم) والى الان يعيبنى ناقدى على هذه القصيدة . ولكن هل كنت يومئذ أعرف أنه ستحدث حرب عالمية ويحتل العراق . هذا ما لم يخطر فى بال أحد .

وهو دفاع ضعيف ولاشك .. ولعل الزهاوى قد حاول بعد ذلك ان يدفع بشعره فى مجال الكفاح الوطنى ليغطى على هذه القصيدة وهو أن كان قد رثى بعد ذلك أحرار سوريا الذين شنقهم أحمد جمال السفاح فأنه صور الثورة بصورة الوبال على البلاد .

وقد كان مما أخذ عليه انه قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها ببيت واحد من الشعر ، وقد كان مما أخذ عليه أنه قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها ببيت من الشعر

ومما يسجله الزهاوى فى هذا الصدد ويأخذه عليه خصومه انه عندما وقعت الحرب العالمية واحتلت الجنود البريطانيـة بغداد .. أرادت أن تأخذنى الى الهند أسيرا . ولكنى أبرزت ورقة فيها صراحة بأنى مكاتب جريدة المقطم فأفرجوا عنى .. وكانت هذه الجريدة موالية للانجليز

وقد صور الزهاوى موقف خصومه منه فى بعض شعره :

قالوا دخيـــل فى القريض فما أجـاد ولا أجدا

قالوا صغير لا يعد من الفحـــول ولن يعدا

قالوا الى الاحسان منه غيره فى الشـعر أهدى

وله جراءه فيلسوف يوسع الاديان مجـــدا

ويصور خصوماته دائما بأنها في سبيل الفكر

وما آن لي الى الجهـــال ذنب

فيغريهم بنفسي ان يكيـــدوا

سوى أني مخـــالفهم وانى

لكل خرافة منهم جحـــود

وقد توعده قوم بالقتل لجراة رايه ولكنه لا يبالى بهم :

توعدنى بالقتل قـــوم وانما

لكل امرىء فى الموت يوم وميقات

برئت من العلياء ان كان لى بما توعد فى القوم اللئام مبالاة

وربما أراد الزهاوى أن يكفر عن هذه الاخطاء فقال فىمقدمة ديوانه الذى أصدره عام ١٩٢٤ « ما حمدت إلا من ظننت فيه خيرا للبلاد وربما خاب ظني فى بعضهم فكففت »

قد مدحت الذين لم يســـتحقوا مدائحى

احســـبوها على ضرورتها من قبائحى

ومن المآخذ التى سجلها هو على نفسه مدافعا عنها قوله قد يعلق بذهن الشاعر شطر من بيت سمعه لتقدم فيأتى بعد سنين فى تضاعيف قصيدة له لاقتضاء المقام لذلك . وهو ناس أنه مقول . فتقوم عليه القيامة ويرمي بالسرقة . .

كما يعتذر عن بعض شعره الذى وصف بأنه نظم ركيـك أو سطحى المعانى :

لا أغالي فربما قلت شـــعرا

لم أكن فى قرضى له بالمجيـــد

منه بكر بطرى ومنه عـــوان

لم يحز رتبة الكعـــاب المزيد

قلته لاهيا فى خـــبى
من هموم الهوى وبرح الصـــدود
يوم للعيد كنت أصـــبوا ومن
ذا ليس يصبوا الى الحسان الغيد
ثم أرهفته فكان ســــلاحى
ثم غنيته فكان نشــــيدى
ثم صـــيرته مجنا يقينى
من فروق شر عبد الحمـــيد

الزهاوى والموت

للموت فى شعر الزهاوى مكان كبير .. فهو الرجل المجدد الذى حاول أن يقتحم فى الحياة بقوة .. كان يصـــود ويذكر الموت ويخشاه ويقف عنده وقفات تختلف مع السن .

وهو يصور فكرة الموت وما بعد الموت من أهوال :

للمرأ فى الارض الفضـاء مسـاكن
انى مضى والقبر آخر مســكن
والموت فوق جنـادل وصـفائح
كالنـوت حم على فـراش لين
قالوا وراء الموت أهـوال ولم
أحفل بما قالـــوا ولم أتيقن
ولعل هذا الموت مبدأ رحـلة
للروح خالـــدة وراء الازمن
وكأننا صور الخيـــال لبرهة
تبدو وتخفى فى شـــعاع الاعين
قد سرت قبلى للورى متعجــلا
ولعلنى بك لاحــق ولعلنى
لا تسألونى عن مصـير من انطووا
أنا بالعـــواقب لسيت بالمتكهن

ويقول في موضع آخر من القصيدة :

تبني الحيـاة لها الصروح من المنى
والموت يهــدم كل ما هي تبتني
في الكون هــذا كل شيء ممكن
الا البقـاء فذاك ليس بممكن
لابد من مـوت لمن هو عائش
فأشجع اذا قابلتـه أو فأجبن
ان المـوت لرابض متحين
ميـاذا ميـراد الرابض المتحين

وفي قصيدة احساساتي يصور الموت في صورة أخـرى. وقد نظمها قبل موته بشهور قلائل وكان قد نزل من السيارة عند باب السوق في بغداد يريد مقابلة أحد الكتبيين فسقط مغمي عليه فحملوه الى داره فقال .. قلت لعل يومي قد اقترب وهي آخر قصيدة قالها قبل موته :

قد أتى يا منيتي أن تعـودي
بي الى حيث كنت قبل وجودي
ليس من هذا المـوت لأنفس بد
فهو للناس من تراث الجـدود
يا أماني فارقيني ويا نفس وداعـا
ويا حشاشة جـودي
لا تخافي على فالموت سـهل
لا كما ينعتونه بشـديد
لاتخافي ليس على الارض ولا في سمائها بجديد

وليل الصبا بمر رخاء
فوق ملجودتي فينعش عودي
لا أنيس ولا نسيم ولا نور
يزيل الظلام عن ملحودي
يوم لا نبصر الربيع
ولا تصغي لانغام البلبل الغريد
يوم لا تطلع النجوم علينا
باسمات من السماء كخود
يوم لا يسفر الصباح لنا
من جانب السماء قائما كعمود
يوم ايدي الردى تجردني
من كل طارف وتليد
سيقولون شاعر غاب في اللحد
وكم غاب مثله في اللحود
سبقتني الى المقابر موتى
أنا في الراحلين غير وحيد
بعد نومي على فراش وثير
عن قريب أنام في أخدود
لا أنيس ولا نسيم ولا نور
يزيل الظلام من ملحودي
غير اني ما أن سئمت حياتي
وهبوطي وهادها وصعودي

ما بلغنا من اللبانات يا نفسي
سوى النـزر بعد جهد جهيد
يممي يا نفسي السماء فاني
لا أرى في الثرى طريق الخلود
ان تلك السماء كالارض هذي
حومة تدمي للكفاح الشديد
لا يخيفنك اللقاء بحرب
هي بالنار تلتظي والحديد
أنت حاربت للتحرر أعواما
طوالا فحاربي من جديد
أنت في الارض ما تطأطأت حتى
تخضعي في السماء أو تستقيدي
انما أنت للتمرد لا للخسف
فالرسف في ثقال القيود

وفي هذه القصيدة يبدو الزهاوي وهو على أبواب الموت في عناده وشماسه وكبريائه .. مدلا بشعره وجهاده في سبيل التحرير . كما يرى أنه بالرغم من بلوغ السبعين لم يزل يحب الحياة ويرى أنه لم يقض منها الا اللبانات اليسيرة بعد الجهد الجهيد . وأنه سيحرم من أنوارها وضحاها وجمالها في حسرة بالغة ..

ويتصل بالموت شعره في الرثاء ويمتاز بروح حية وأسلوب طليق وفلسفة عميقة يتصل دائما بالموت والحياة

يرثي المتنبي في ذكرى الالفية فيقول (١) وكأنه يذكر نفسه :

ما أنت يا أحمد في دولة الادب
الا الزعيم والا شعر العرب
وما تنبأت في دين كما زعموا
بل في الفصاحة سباقا وفي الادب
فكان يوحى اليك الشعر عن شحط
وكنت في قادة الاداب أولهم
وكان يوحى اليك الشعر عن كثب
وكنت أولهم في الجحفل اللجب
وكنت في الشعر مثل الماء منطلقا
وكنت في الحرب مثل النار في الحطب
كم حكمة لك سارت في الورى مثلا
قد قلتها بلسان الشاعر الذرب
كم دولة للقريض الناهض انقلبت
لكن عرشك فيها غير منقلب

وقال في تأبين الشاعر عبد المحسن الكاظمي (٢) وهو من جيله وواحد من أربعة شعراء العراق الجوهري والكاظمي والرصافي والزهاوي :

صدق النعي ومات عبد المحسن
يا شعر أنبه ويا نفس أحزني

١ ـ الرسالة ٧ يناير ١٩٣٥
٢ ـ الرسالة ١٠ يونيه ١٩٣٥

يا شـــعر ومحسن قد كنتما
عمرا رفيقى غـــربة وتوطن
قد عشـــتما فى كل منزلة معـــا
كالفـــــرق بين اللامعين واحسن
أو زهرتين ولا أرانى داريـــا
أشـــغفت بالنسرين أم بالنتوستن
حتى احتوته يد المنـــايا بغتة
بمخالب معقـــوفة كالمحجن
لمن الزعامة فى القريض ومن لهـــا
بعد الحفى الشـــاعر المتفنن
ملأت قصائده القـــلوب حماسة
من بعد ماشـــغلت جميع الالسن
شعر يكاد يســـيل منه لفظة
مثل النـــدى من رقة فيهزنى

عقيـــدة الزهاوى

كانت عقيدة الزهاوى هى بؤرة نقد خصومه .. والدعوى المطلقة فى كل مكان .. كان الناس يقـــولون ولا زالوا : ان الزهاوى كافر وملحد وزنديق ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر. ولا بالبعث والنشور. وهو اتهام يوجه الى كل شاعر مجدد. وكل مفكر جرىء وكل مصلح سبق زمنه .. أو أديب أراد أن يهز حياة قومه الجامدة .. وما من كاتب أو مفكر أو شاعر لمع اسمه وتألف الا وكان له من خصومه مثل هذا الاتهام .

فهل الزهاوى حقا ملحد . وما هى عقيدته .. لندع شعره فى مختلف مراحل حياته يكشف لنا عن الحقيقة .

فى ديوانه الكلم المنظوم الذى أصدره عام ١٩٠٧ وهو أول دواوينه يقص القصـــة على لسان امرأة تحدثت معه فى هذا الشأن قالت :

أأنت الذى بالزعم يذكر أننـــا
اذا ما ردينـــا لم نعد مرة أخرى
فينكر بعد الموت عود حيـــاتنا
وتجحد فى أقوالك الحشر والنشرا
فلو لم تكن دار يجـازى بها الفتى
تساوى اذا من يفعل الخير والشرا

ويرد هو فى نفس القصيدة فيقول :

ندمت على ما كنت فرطت قبل ذا
يسوء اعتقاد لى الى الكفر جرا
لقد قلت قولا باطلا بجهالة
حنانك اللهم يا خالقى غفرا
لقد تبت عما كنت معتقدا له
فان لم تتب ربى على فواخسرا
شهدت بأن الله ربى واحد
تنزه عن عيب يشين له قدرا
اذا غنى الشيطان عن منهج الهدى
وكان يمينى فانحرفت الى اليسرا

وفى هذا اعتراف صريح من الزهاوى بانه انحرف فى رأيه ثم عاد فاعتدل مرة أخرى . وفى عباراته معنى التوبة والرجوع الى الحق الذى اعتقده بعد أن عرفه . وما على الزهاوى من بأس فى هذا ولا ضير :

ويقول فى قصيدة : احساسانى

لست أدرى أللفناء سنمضى
بعد ما نموت أم للخلود
اننى فى شك وان ملأوا سمعى
بوعد يروونه ووعيد
لا تثق بالجمهور يا عقل يوما
ان رأى الجمهور غير سديد

تأكل الارض كل حي فلا تبـــقي

على والـد ولا مولـــود

أمم كلهـــا ببيد فتاتي

امم أخرى بعـــدها للبيود

سوف يقفو ركب الى الموت ركبـا

ثم لا أشـــدو خلفـه بنشيدي

وفي هذه القصيدة يعود الزهاوي الى الشك في الحياة بعد الموت ولكنه لا يلبث أن يقول في نهايتها :

كلنا مؤمن يســـبح للرحمن

في ظل عرشه الممـــدود

انني ما ســـجدت يومـا لغير الله

فالله وحده معبـــودي

وفي هذه الصراحة قوة وصفاء ووضوح :

وهو في أوضاع مختلفة من شعره يدافع عن نفسه عـــاذا الاتهام (١)

ما حيـــاة قديمهـا غير باد

لك الا تطور في الجمـــاد

ولقد يهلك الذي يتـــوقى

وقد لا يعيش أهـــل الحياد

أي ذنب لي أن تبـــاعدت

الشـــقة بين اعتقادهم واعتقادي

---

١ ــ قصيدة تطور في الجماد • الرسالة ٢٥ فبراير ١٩٣٣

كلما خالف الجمـــاعة فى الرأ
ى جرىء رموه بالالحـــاد

وفى قصيدته الضخمة : ثورة فى الجحيم .. يعاود تصوير ايمانه فيقول :

كان ايمانى فى شبابى جمـ ـا به نزوه ولا تقصــير
غير أن الشكوك هبت تلاحينى فلم يستقر بى الشعور
ثم عاد الايمان يقوى الى أن سلمه الشيطان الرجيم الغرور
ثم آمنت ثم الحدت حتى قيل عـــذا مذنب مغــرور

ثم دافعت عنه بعد يقين مثل ما يفعل الــكمى الجسور
وتعمقت فى العقائد قبل هذا عــلامة غرير

ثم انى فى الوقت هــذا تخــوفى
لست أدرى هــذا اعتقــادى الاخير

وتعطى هذه الابيات صورة الزهــاوى وهو بين الايمـــان والالحاد باحثا حتى وصل الى الاقتناع عن طريق العلم والبحث لا بالوراثة والتقليد وهو يقول فى شأن عقيدة المقلد وعقيـدة البصير الباحث :

أمن اكتفى بخـــرافه فهو مؤمن
ومن امترى فيها من الكفـــار

ولدى النهاية جاهل في جنة
فيها النعيم وعالم في النار

ولم يدع الزهاوي خصومه ينطلقون في اتهامهم له فصرخ فيهم صرخة عازمة :

يا قوم مهلا . مسلم أنا مثلكم
الله ثم الله في تكفيري

حكمة الزهاوى

قال نقاد الزهاوى أنه أشبه بالمعرى من ناحية واشبهه بالمتنبى من ناحية أخرى وارادوا بذلك انه يماثل المعرى فى قصائده الجريئة وآرائه فى الحياة والموت وما بعد الموت وحربه على خرافات الدين وأوهام العامة .. وانه أشبه بالمتنبى فى اعتداده وكبريائه وفلسفته واعتزازه بشعره وكذلك حكمته المنثورة فى طوايا قصائده .

والحق أن الزهاوى كان فيلسوفا وانه كان يتعرض لقضايا الحياة فى قوة وجرأة حتى ليمكن ان يطلق على ادبه دائما أدب القوة .

يقول :

ليس الحياة سوى نزاع دائم
يا للضعيف به من الجبار
يا شيب لستم للوغى فتأخروا
وبدار يا شبان ثم بدار
انضوا القديم وبالجديد توشحوا
حتى م تختالون فى الاطمار
وتحرروا من نير كل خرافة
خرقاء تلقى الزيغ فى الافكار

وتحرروا من قيد كل عقيدة

سوداء ما فيها هدى للساري

ويصور الحياة والموت في صورة رائعة :

لقد راعني رزايا توالت

والرزايا اذا توالت تروع

ورأيت الايام تأكل من أعمارنا

في الحياة وهي تجوع

وكأن الارض التي هي وارت

كل هذي القبور قبر وسيع

وكأن السماء قبة دير

وكأن النجوم فيها شموع

كلما شاهدت المقابر حولي

اخذتني مهابة وخشوع

ليس للقادمين منا بقاء

ليس للذاهبين منا رجوع

ومع هلال محرم يشدو داعيا أبناء العروبة الى المجد والحرية والكرامة :

ومن لي بعام لا يشابه غيره

أرى فيه اظفار البغاة تقلم

وأبخل أرض بالرجولة يقمه

يضام الفتى فيها ولا يتبرم

أدير عيونى فى الوجـوه فلا أرى

سوى الذل مقـروءا ولا ألوسم

ليحزننى أن العنـادل آثرت

سكوتا وان الزهـر لا يبتسم

بنى وطنى لا تسكتوا عن حقوقكم

أليس لكم منكم فم يتكلم

لكم ثروة فى الارض ألقا بها لكم

وأرباحها للغـرب نهب مقسم

لا فخر الا للذى هو ماجـد

ولا مجـد الا للذى يتقحم

وما الحـر الا من اذا ضيم لم يلن

وان قال حقـا فهو لا يتلعثم

وما بال أبناء العروبة أصـبحت

على الذل أشتاتا تشب وتهرم

وما بال أبنـاء العروبة سلمت

وقد كان عهـدى أنها لا تسلم

لالام قومى الصـيد نفسى تألمت

لك الويل يانفسى التى تتـألم

وهو محب للحياة مهما علت به السن يدعـو الناس الى المتاع (١) بها :

---

١ ـ قصيدة خطرات ، الرسالة ، أكتوبر ١٩٣٥

يا نفسي ياتنخدعي بالزاهد المنقطع
دنياك هذي تحتوي على النعيم أجمع
تنعمي بخيرها قبل دنو المصرع
وبالحياة ما صفت تمتعي تمتعي
لكل باب تحسبين الخير خلفه اقرعي
وانتهزي الفرصة قبل فوتها واسرعي
بالبسمات تبلغين السؤال لا بالادمع

وهو اشتراكي يدعو الى المساواة

لايعرف المؤلم في الحياة الا المؤلم
الف يعيش بائسا وواحد منعم

ثم يعاود هذا المعنى بصورة أقوى وأوضح :

ان من كدوا يزرعون البقاعا
اشبعوا غيرهم وباتوا جياعا
ربح المالكون الارض غصبا
ومضى كد الزارعين ضياعا
يفقر الدهر ألف بيت ليغني
واحدا من أفراده جماعة
لا ترى بين أو ليهم ثريا
كانزا للاموال أو مناعا
ومن العدل يكون نتاج الارض
بين المستثمرين مشتاعا

ان بين الحق المحصحص والباطل
منذ الدهـــر القديم نزاعا

ولقد ذكر الزهاوى كثيرا انه تتلمذ لابى العلاء وهو يقول مخاطبا اياه في قصيدة له من ديوان الاوشال :

وأني أكبر شيء فيـــك يعجبنى
سخرية من تقاليد وعصـــيان
أنكروا فيك الحـــادا وزندقة
وعل ما أنكروه فيك بهتـــان
انني تتلمذت فى بيتى عليك وان
أبلت عظامك أزمـان وأزمـــان
أصابني في زماني ما أصـــابك من
حيف فما رد هـذا الحيف انسان

وهكذا يصل الزهاوى الى أن يربط نفسه بالمعرى في تشابه حياتهما وما لقياه من الجماهير

وقد عارض الزهاوى قصيدة ابن سينا عن الروح فقال :

طارت بعز للســـماء الا رفع
ورقاد كانت فيك ذات تخضـــع
قد كان مسكنها بجسمك ضـــيقا
واليوم تسبح في مـكان أوســع
الله أرســلها اليك وبعـد أن
مكثت قليـــلا فيك قال لها ارجعي

وان كان لم يتم عدة القصيدة وقال : حال دون اتمامها مانع .

خدعوها بقولهم حسناء
شعرها الليل والجبين ذكاء
غرها ذلك الثناء فلانت
والغواني يغرهن الثناء

ومن شعره الحكمي قوله :

ما أكبر الاخلاق في نفس امرئ
ان خاشنته الناس لم يخشوشن

وقوله :

ما قلت شيئا بفمي
الا وعقلي ملهمي
أنا ابن عقلي وحده
تنبئي عني كلمي
به اهتديت في شبابي
مثلما في هرمي
ربما كانت أمور
أنا عنهن عمي

دموع الزهــاوى

لدموع الزهاوى قصة طريفة .. فقد عرف بأنه صاحب دمعة .. وكان هذا مصدرا من مصادر متاعبه . ولطالما ردد فى شعره قصة الدمع .. غير انه عاد فى آخر أيامه . فدعا الدمع الى أن يقر فى العيون .. ويرجع على الاعقاب :

يقول فى ديوان الكلم المنظوم :

الأيادى مع انك ترجمـــانى
فبين للأحبة ما أعـــانى
اليهم فى فى فؤادى بعض شــكو
ى لسانك فيك أفصح من لســانى

ويقول :

ابك فان عبرة الباكين سلوى لهم
أليس ثغر الدم فى وجه الحزين يبسم

ويقول الاستاذ ناصر الحانى فى محاضراته عن الزهاوى :

« عرف ان دموعه طيعة ، وانه يبكى اذا ضجر وثار .ويبكى اذا ابتهج وسر . وعرف عنه بعض مناوئيه ومغيظيه هــذا .. فراحوا يثيرونه ويشيعون عنه ما يبعث الفرح اليــه حينا .. وما يغيظه ويبعث الثورة فى نفسه أحيــانا . وظل يعيش فى

عالم خاص به ـ لاسيما في شيخوخته ـ ويرى أن قومه لم ينصفوه ..»

وهو في قصيدة: دمعتي يكاد يصور هذه المعاني كلها:

أنت اما أن تخففين مصابي
دمعتي فارجعي على الاعقاب
أنت لا تدرئين عني دائي
أنت لا تصلحين منه خرابي
أنت لا تجديني في شقائي
أنت لا تنقذينني من عذابي
أنت لا تدفعين وطأة شيبي
أنت لا ترجعين عهد شبابي
أنت لا تقدرين أن تهبيني
راحة أو تسكني أعصابي
انما أنت قطره ستبلين
اذا سلت بقعة من ثيابي
أو تضيعين بين لحيتي البيضاء
أو تنيضين فوق التراب
ارجعي فالحياة ليست تساوي
ان تخري من حالق كالشهاب
لا تخري وان قضى ان تخري
سبب قاهر من الاسباب

ان نفسي لا ترضى ان يهـــوني
كشجوني وان ملأن أهـــابي
يا ابنـــة الهم ان غرفتك القلب
فلا تخرجي الى الابـــواب
أنا لم أسأل العيـــون بكاه
لتكوني على السؤال جـــوابي
واذا ما هبطت بالرغـــم مني
طال يادمعتي عليك عتـــابي
أنا ان بكيت أبكي بشـــعري
ولقد أهديه الى الاحقـــاب
كل بيت منه اذا عصـــروه
دمعـــة ترة على الاداب
بين شعري وما يجيش بصـــدري
من شعور وشـــائج الانســـاب
أنا عنه محـــدث وهو عني
وكلانا في القـــول غير محاب

ويقول في رسائله ان آلامي المعنوية أكبر من آلامي المادية. فاني كلما رأيت تقدم الشعب بطيئا استولى على اليأس . وكلما انخدع بالباطل تمزق قلبي من الاسى .. وكلما خضع للظلم شرقت بدمى .

الشعر المرســـل

دعا الزهاوى الى الشعر المرسل وحاوله على أساس انه جزء من دعوته الى حرية التعبير والقصيد . وقد نشر في هلال يونيه ١٩٢٧ قصيدة أطلق عليها اسم « بعد ألف عام » وقال انها قصيدة من الشعر المرسل الذي استحدثته في الشعر العربي مطلقا اياه من قيد القوافي . ذلك القيد الثقيل الذى تبرم به الشاعر وحببته الالفة الى السمع وما أرى لالتزامه من ضرر غير انه من تراث الماضي الذى بقى دهرا يشل الشعر فى مجموعه .. فلا يمنحه حرية لايراد القصص وبث الاراء والوصف كما ينبغي . ولا يدله في الموسيقى التى تجعل الشعر الا وهى الوزن .. وحسبك دليلا على أن البيت الواحد يتمثل به الكاتب فيلذه القارىء عارفا أنه شعر من غير أن يسأل عن موافقته لرديفه فى القافية ..

ما أغنى أرجل غوانى الشعر عن خلاخيل القافية .. وأغنى السمع عن سماع وسوستها التى تشوش عليه موسيقى الوزن ومن نكد الشعر العربى ان قيد القافية فيه أثقل منه فى الشعر العـــربى .. بطىء التطور بحسب الحاجات العصريه التى لا يشبعها ذلك القديم الضيق وانى لا أريد اليوم رفع القافية من كل أقسام الشعر فذلك عسير على الاذواق التى ألفتها منذ

عصور طويلة وأحقاب بعيدة .. ولكن أي يأس في أن يوجد نوع من الشعر المرسل كما يوجد المقيد . وان يكون هذا النوع خاصا بالقصص والوصف والجدل والحكم حيث ينبغي أن يسير على صوت موسيقى الوزن حرا طليقا في مجال واسع لا يرسف في قيوده متقلا .

وقد نشرت لي المؤيد في مصر قبل أكثر من عشرين سنة قصيدة بعنوان الشعر المرسل ونشرت لي جريدة في العراق قصيدة أخرى قبل سنتين تقريبا فقامت حول هذه قيامه المحافظين على القديم . وكان لي يومئذ أنصار كما كان لي خاذلون . وقد رددت على نقد الناقدين يومئذ بسلسلة مقالات أثبت فيها أنهم كانوا على باطل ..

والواقع أن الزهاوي حاول أن يكسب أنصارا للشعر المرسل ولكنه هو شخصيا رجع عنه بعد ذلك الى النظم والقافية بعد أن تبين انه لا يرضي الا القليل .

ولعل هذا النموذج الذي نورده من قصيدة «بعد ألف عام» تبين مدى نجاح التجربة .

حكومتهم شبه اشتراكية فما تنعم بأفراد وتشقى جماهير
يعيشون أحرارا فليس مسيطرا عليهم سوى العقل
أحاطوا بأسرار الطبيعة خبرة
فلم يبق عنهم من نواميسها خافي
وقد عرفوا عفو الغريزة كل ما له نحن كنا بالروية نعرف

وإذا ما أرادوا السير فالجو واسع

وأمـا أرادوا المكث فالارض مهلـاء

يرى بعضهم بعضا ويسمع صوته

وبينهما الارض القصية تفصـل

ويقـرأ كل منهم فـكر غيره

قـديرا فلا تخفى عليـه السرائر

وقد كان الزهاوى فى هذا يقلد ولز وجول فيرن وغيرهم من المتنبئين .

بين الزهاوي والرصافي

عاصر الزهاوي ثلاثة شعراء في العراق : الرصافي والكاظمي والجواهري .. ولكنه ارتبط في ذهن الكثيرين بالرصافي . ولعل مرجع ذلك الى أنهما كانا كفرسي رهان في ميدان واحد : وقد وصف كل منهما بالجرأة على المعتقدات .

والواقع أن الزهاوي ولد سنة ١٦٨٣ توفي عام ١٩٣٦ وعاش ٧٣ عاما والرصافي ولد عام ١٨٧٥ أى بعد الزهاوي باثنى عشر عاما وعاش حتى سنة ١٩٤٥ وبلغ من العمر سبعين سنة .

وقد قيل كثيرا أن هناك خلاف بينهما ولكن الزهاوي قال غير هذا فى بعض قصائده ان الرصافى بالنسبة له كهارون الى موسى وقدم نفسه كعادته

وانى بمعروف لأعتز انه
أخو ثقة والحر يعتز بالحر
كلانا يريد الحق فيما يقوله
وانى واياه الى غاية نجرى
فخذ بيدى اللهم فى كل دعوة
وهذا أخى معروف فأشديد به أزرى

كما أشار الزهاوى فى رسائله (يناير ١٩٤٧، و مجـــلة الكاتب المصرى) بقوله : أما النزاع بينى وبين الاستاذ الرصافى فنيس اليوم كما يكبره المرجفون فكثيرا ما نتلاقى كصديقين .

ومعنى هذا ان هناك خلافا كان قائما فى فترة ما . ولست أعرف وجهة نظر الرصافى فى هذا الخلاف كما لم يصل الى أن الرصافى رثى الزهاوى بعد موته والواقع أن هنـــاك فارقا وخلافا شديدين بين منهج كل من الشـــاعرين ومذهبهما فى الشعر والحياة . ولعل الزيات حين وصف الزهاوى بأنه كان قريبا من المعرى وأن الرصافى كان قريبـــا من أبى نواس كان يحكى الحقيقة .. فقد عرف أن الرصافى عاش حياة عـــارية جريئة كلها متع وخمر وجرأة على التقاليد .. بينما لم يمض ذلك الزهاوى الذى كان مريضا .. وكان حريصا على الاحتفاظ بمظهر الوقار والكبرياء ليترك فى نفوس الناس دائما صـــورة الدعاة وأصحاب الرسالات .

ومما قاله الزيات أن الرصافى (١) تميز بالصراحة الجريئة والاستهتار البـــالغ . وانه هو نواس العـــراق فى حين كان أستاذه الالوسى يريده أن يخلف معروفا الكرخى الصـــوفى المعروف . ولعل اضطراب حياة الرصافى يرجع الى انه لم يجد ما كان يطمع فيه من مكان فى عهد فيصل مما دعاه الى أن يعلن الخصومة على الملك ووزراءه

١و٢ ـ الرسالة ٢٦ مارس ١٩٤٥

ولكن هذا لا ينقص من قدره كشاعر . يقسمه النقاد بين الاوتاد الخمسة للشعر العربي الزهاوي والرصافي وشوقي وحافظ ومطران (١) وكان الدكتور طه حسين قد مضى بامارة الشعر التقليدي للعراق بعد وفاة شوقي (١٩٣٢) وقد علق الزيات على هذا بأن الزهاوي يفضل ان يكون في ساحة المجموعين على أن يكون في طليعة المجددين .

وقيل ان الفرق بين الزهاوي والرصافي أن الزهاوي أديب عالم والرصافي فنان أديب .

الزهاوى فى رأى مؤرخيه

يروى الاستاذ الزيات أن الزهاوى كان يحضر فى آخر أيامه ندوة السيد صبحي الدفترى محافظ بغـــداد في داره ضحى الجمعة من كل أســـــبوع يحضرها الوزراء والزعماء والادباء والقادة ٠٠ فيكون لـكل طائفة منهم حلقة وحديث ٠٠ ولـكن الزهاوى كان اذا تكلم أصغت اليه الدار وتحلقت عليه النـدوة لان جميلا كان آية الله في فكاهة الطبع وظروف المحـــاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث ٠ وكان له في القاء النادرة لهجة واشارة وهيئة لايبرح سامعها مستطار اللب نشوان المشـاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع ٠

ولعل أبلغ مظاهر حياته هو ذلك القلق والتشاؤم والتململ ولا يشعر بالطمأنينة ينطلق يشكو دائما كل من يلقـــاه عن جمود الامة واغفال الدولة وكيد الخصوم والحاح المرضى ٠٠ وكانت الحيوية تقبض من كلماته ٠٠ والعزيمة تصـــطرم فى نظراته ٠ وهو كتلة من الاعصاب القوية المشدودة (١)

---

١ ـ وحى الرسالة ٢ الصادر عام ١٩٤٤

١ ـ الزيات ـ الرسالة ١٩٤٧

وهو بين الشكوى والزهو والطموح والقلق والتمرد يعيش حياته

يقول الزيات : كان الزهاوى يهزج باغاريد الفجر على ضفاف دجله فتتردد أصداؤها الموقظة فى ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب · وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى أوصل القلوب العربية فىمجاهل القرون القديمة بخيوط الهية غير منظورة ولولاها لما تهيأ العراق هذه الزروة ·

وانه ساعد على انهاض العرب بوثوب فكره ·· وعلى احياء الادب بوميض روحه ·

وقد قال بعض مؤرخيه انه : راوية لا يبارى ·· فكان صدره يعى من الاخبار والنكات والحوادث ما تضيق دونه المجلدات وكان له فى الرواية أسلوب خاص يأخذ بمجامع سامعيه · وانه كان فى أخريات أيامه يتردد على قهوة معروفة فى بغداد فيلتف حوله تلاميذه ومريدوه ويستمعون الى رواياته الشائقة وأحاديثه الممتعة ونوادره المضحكة ولا يقاطعونه ولا يجرءونعلى معارضته ·

وقد عنى بعض المستشرقين والكتاب الاجانب بآثاره وكتب أمين مكتبة الفاتيكان الكبرى : ان ما يحتوى عليه ديوان الاوشال هو أروع ما قرأناه فى الشعر العربى العصرى ·وكتب المستشرق الدكتور ودمر الالمانى ترجمة حياته · وترجم قصيدة ثورة فى الجحيم وخمسين قصيدة من اللباب و٥٣ رباعية الى الالمانية وكتبت عنه بعض صحف برلين مقالات وابحاث ·

وجملة قول نقاده ومؤرخيه : أنه حمــل لواء التجديد فى الشعر العربى ودعا الى الاخذ بكل جديد من الاراء والإفكار . وتحمل فى سبيل ذلك كل أذى فقد كانت بيئة العراق جمود وظلام وقد غمرتها الامية وطغى عليها الجهل . (١) وقد الف الناس الخضوع لجبروت الحكام والخضوع لبالى العادات . وما أضفاه المشعوذون عليها من أثواب التقديس والتعظيم .. وكان أى واحد يخرج على بعض التقاليد يتهم بالزندقة والكفر أو يتحدث عن شيء مما ابتـكره الغـرب حتى يرمى بالبـدعة والمروق فى الدين .

وقد نقد الاستاذ سليم طه رباعياته .. وقال انها ركيكة المعنى مهلهلة الاسلوب تعوزها الصناعة الفنية وتنقصها دقة التعبير الى جانب السبك فى النظم وحسن اختيار الكلمات .

ومن جماع ما يقال أن القلق كان ابرز معالم شخصيته .. وان ارتفاع السن والحياة الطويلة أعطته شيئا من القداسه . وان عواطفه وآرائه تبلورت بعد سن الاربعين . وانه لم ينظم شعرا فى الثورة العراقية وان والدته هى التى أورثته الصلابة ولعناد . ونه كان يحب المدح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعا.. وانه تأثر بأحداث العراق والبلاد العربية وانه عاش حيـاته شاكيا ضجرا قلقا . وكان التشاؤم والتقطيب والضـيق والشكوى من أبرز مظاهر حياته .. وقيل ان علله وأمراضه التى لازمته طوال حياته لها أثرها فى اتجاهاته وكانت مصدر

١ ـ من مقال فى مجلة يونيه ١٩٤٩

قلقه وجزعه واكتئابه وقالوا ان فيه تناقض واضطراب وعاطفته تغلب عقله أحيانا . ولا يستطيع أن يطوى صدره على الاوهام الخاصة .. وكان يحس بأنه دون قدره وان لم يعط ماكان خليقا به .

وقد سبق الزهاوى جيله وتأثر بالتيارات الفكرية وعاش في مرحلة انتقال واضطراب بين الدين والوطنية وبين العثمانية والحرية وبين الاستعمار والاستقلال وبين الترك والعرب .. وأبرز ما فيه ثباته على ما دعا اليه . وقد عرف « بليلى » فقد كانت (١) حلمه الذى صبا اليه وأمانيه التي حط عندها رحاله فهي في الحقيقة وطنه العراق وهى فتاة أحبها أيام كان في الاستانة .

وقد أطلق روفائيل بطي على الزهاوى اسم «فيلسوف بغداد في القرن العشرين » وانه لم يحس في حياته بالتقدير من وطنه ولا من الادباء .

وقال نقاده : ان شدة حنقه على المجتمع يرجع الى علة لازمته طوال حياته . والمرء شديد الانفعال في مثل هذه الاحوال اذ يرى نفسه رازحا تحت ثقل الآلام حالة ان غيره ممن ليس أجدر منه ينعم الحياة يتمتع بما لذ وطاب ويسير في الارض مرحا وعليه نجد شعره ضربا من الفلسفة الاجتماعية وقد أدركته علته في النخاع الشوكى وهو في منتصف العقد الثالث من عمره

١ ــ ناصر الحاني في محاضراته .

فتبعتها علل أخرى لم يكن الشلل الا بعضها . لهذا كان يسير دائما راكبا وبرفقته خادمه الامين .. فاذا ترجل توكأ عليه حتى يصل الى مجلسه .

وكان الزهاوى يميل الى البساطة في كل شيء ويتجنب كل كل ما يشف عن العظمة والغطرسة وكان بيته رمزا على بساطه عيشه . وكانت حديقة منزله على صغر مساحتها دليلا على حسن ذوقه وشدة ميله الى الطبيعة .

وكان الزهاوى يبسط آراءه بكل صراحة ولا يعبأ بانتقاد يوجه اليه وكان شديد الانفعال ينتقل من الغضب الى الفرح في طرفة عين . ويقول ان الحياة أقصر من أن يضيعها المرء فيما يسوء .

وكان الزهاوى شديد الولع بمشاهدة السينما ويحب مصر وادبها وفنها وتمثيلها وغنائها .

ويقول اسماعيل ادهم في دراسة قصيرة له عن الزهاوى انه تأثر بشبلى شميل فبعد أن كان يؤمن بالدين أثارت هذه الفصول في نفسه روح الجرأة على المقدسات وانه تأثر بالوهابية تأثيرا عكسيا فرد على دعاتها في كتاب بعنوان : الفجر الصادق في الرد على منكرى الكرامات والخوارق .

وان رأيه في المرأة هو رأى أفلاطون الذى يرى ان المرأة

وان كانت أقل في الاستعداد الطبيعي الا انهـا تقترب من استعداد الرجل ·

وقال اسماعيل أدهم ان أبرز معالم شعر الزهاوي اتجاهه العقلي في الشعر بعيدا عن الخيال والتأمل الفلسفي وانه حمل الشعر رسالة العلم · وقد جمع بين العقلية العلمية مع القدرة على النظم · وكان في احساسه الشعور بسبق الزمن ·

الادب العــراقي في عصره

كان العراق فى العصر السابق لاعلان الدستور العثمانى ٠٠ يعيش فى جو مظلم خانق من دسائس السلطان عبد الحميد٠ لم يكن هناك من يجرؤ على كلمات الحريه والاستقلال وفى خلال هذا العهد هاجر جميع أحرار الفكر الى مصر وتركوا البــلاد التى تحكمها تركيا العثمانية ٠٠ واكتفى الزهــاوى بأن ينظم نفثات قلبه ويرسل بها الى المؤيد والصحف المصريه مهاجما عهد عبدالحميد ومطالبا بالحرية والسفور ٠ فلما أعلن الدســتور سنة ١٩٠٨ قوبل ذلك فى العراق بالفرح الشديد والتهليــل املا فى الفرص التى سيتيحها الدستور للناس فى حرية القول والرأى والنشر ٠ وكان الزهاوى فى مقــدمة الذين اهتزوا لهذا الحدث الكبير ٠

وبدأ الادب العراقى يدخل فى دور جديد حيث انبعثت منه حركة أدبية ضخمة ٠ كان قوامها مدرسة الالوسى فى بغــداد وعميدها محمود شكرى الالوسى ٠ ومفتدى الشيخ أمين غالى فى البصرة ومكتبه دير الادباء الكرمليين ببغداد ٠

كما حافظت النجف على استقلالها الادبى وتراثها الروحى فما زالت دار علم ومدرسة للثقافة فيها أسر قديمــة توارثت

طلب العلم والادب خلفا عن سلف وأساتذة ممتازون فى المنقول والمعقول ولها مكتبات غنية بما ينشده الباحث والاديب (١)

وقد أقامت الطبقات الادبية التي ظهرت في هـذا العصر أدبها على أنقاض أدب النجف الطبطبائي والفحام والنحوى والاعيسم • ومن شعراء الحلة جمهور الحلي ومحسن الخضرى وسعيد الحبوبى •

وقل في هذا العصر المدح في الشعر وكثر الوصف • واتجه الشعراء الى وحدة الموضوع فى قصائدهم بدلا من تعدد المواضيع • وشاع الشعر السياسي والاجتماعى •

ولم تنس العراق أدبها التقليدى الرائع : الادب العلوى الحسينى الذى يحمل دعوة الكفاح والجهاد •• ويرسم صورة البطولة والدفاع عن النفس والعقيدة وذكر امجاد الاسلام والعراق ولعروبة وقد كان للنهضة الادبية الحديثة فى العراق أثره الواضح فى القصائد والملامح الجديدة التى تحدثت عن التضحية والبطولة •

ولم يلبث العراق بعد قليل ان ثار ثورة عارمة مجيدة تحدث عنها القاصي والداني سنة ١٩٢٠ كانت بداية عصر التحرر والوطنية •• انتهت معها معالم الاستبداد العثمانى وظهرت القومية العربية جهيرة حية واضحة • وبدأت مرحلة

---

١ محمد رضا الشبيبي : بحث فى المجمع اللغوى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨

جديدة من مراحل الكفاح لمقاومة الاحتلال البريطاني وارساء قواعد حياة وطنية جديدة قوامها الدستور والنيابة والعهد الجديد الذي كان على رأسه فيصل ومن بعده غازي وفي خلال هذا التاريخ الطويل كان الزهاوى والرصافي والجواهري والكاظمي أبرز شعراء الفترة ·

وقد كانت مظاهر الادب العراقي كما صوره الاستاذ الشبيبي جزالة عربية في الالفاظ ومحاكاة للقدماء وجمود على الفنون الشعرية المألوفة حتى جاء الزهاوى والرصافي فجددا الشعر ودفعاه دفعة قوية الى الامام حيث حرراه من بعض قيوده فأتجه الادب العراقي الى الواقعية وكان هذا تطورا طبيعيا حيث زالت نظم مألوفه في الحكم وحلت بدلا منها أخرى استتبع تغيرا في أساليب الفكر والنظم والكتابة ·

وقد كان شعر الزهاوي والرصافي والكاظمي على الاختلاف البعيد في اتجاهاتهم وأساليبهم ترجمانا لحياة العراق وما يجيش في نفوس أهله وما وقع فيه من أفراح ومآسي ·

ومن ناحية اللفظ يتجلى في الشعر العراقي رصانة في مبناه وصفاء ديباجة وبيان مشرق ·· ولعل شعرا في العالم العربي لم تقم فيه دعوة قوية الى التجديد والتطور والتحامل على القديم مثلما حدث للشعر العراقي ·

يقول الدكتور زكي مبارك أن الادب العراقي الحديث انتفع بثلاثة ينابيع : أولهما الادب الفارسي ·· والادب التركي والادب المصري هذا بالاضافة الى الادب العربي القديم ·

وقد نظم الزهاوى الشعر بالفارسية يوم ذهب الى ايران للاشتراك فى احياء ذكرى الفردوس ٠

وقد عرف الشعر العراقى الشاعر الفيلسوف فى الزهاوى والشاعر الاديب فى الرصافى وفى الشاعر العربى التقليدى فى الكاظمى وفى شعر الموشحات فى الحبوبى ٠

ويتميز الادب العربى بالحديث عن الامة العربية ويرسم صورا كثيرة من الشام ومصر ٠

فكثير من أدباء العراق عاشوا فى مصر ٠ والاخوانيات من ابرز مظاهر الادب العراقى فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد

وقال زكى مبارك أن شعراء العصر فريقان ٠٠ فريق يترسم خطى شعراء الجيل فى الماضى القريب ويجرى على سننهم المعروف فى المذاهب والاساليب مع شىء من التجديد : أحمد الصافى والحبوبى واليعقوبى والجواهرى والمقلد والخطيب والجعفرى وشعراء الرابطة العلمية الادبية فى النجف والفريق الاخر من شعراء الشباب الذى يميل الى مجاراة الغربيين ويحاول ان يتعاطى النظم على طريقتهم المعروفة وعددهم قليل ٠

وللادب العراقى الحديث فى مراحله فترات من أظهرها جنوحه الى التشاؤم والشكوى ٠ ووصف مظاهر البؤس والحرمان فى كثير من الاحيان ومن مميزاته نزوع ظاهر الى العنف فى مقاضاة الطبقة الحاكمة والدفاع عن حقوق الطبقة المحكومة ٠

وفى ميدان النثر طائفة من الباحثين والعلماء المنقطعين

للدراسات الفكرية يؤلفون ويدرسون وينشرون ولهم مؤلفات وتصانيف أبحاث منهم بهجت الاثرى ومصطفى جواد وعباس غزاوى وجواد على وأحمد سوسه وكوركيس عواد

وقامت الصحافة العراقية بدور ضخم في سبيل الحركة الوطنية العراقية وكان لكتابها جهد ملحوظ ويقول زكي مبارك أن المقالة القاسية في جريدة عراقيــة ٠٠ فهي تزلزل احساس الجمهور أعنف الزلزال ٠ وقد أغلقت جريدة عراقية لانها كتبت مقالا عنوانه الفرات الهائج لانها تناست الفرق بين الهياج والطغيان ٠٠ فالهياج يضاف الى السكان أما الطغيان فيضاف الى الماء ٠

وهكذا يبدو الزهاوي بعيد الاثر في أدب العراق ٠ اشترك فيه أكثر من خمسين عاما في ثلاث عهود ٠٠ قبل الدستور وبعده وفي عهد الاستقلال والوطنية ٠ ونافح عن العراق والعرب والحرية الفكرية وطالب بتحرر المرأة ٠ وهز قوائم المجتمع العربى بدعوته الحرة وجرأته الخالصة واندفاعاته المتحررة في تجديد نظم الشعر وتوجيهه من التقليد والعنـاية باللفظ ٠٠ وموضوعات الشعر القديمة الى الاقتحام في ميدان السياسة والاجتماع والاختراعات الحديثة وحمل لواء التجديد ٠

وقد واجه المحافظون الزهاوى بالنقد وقاوموا دعوته وأسلوبه ولكن الزمن تغير وأصبح الزهاوى مظهرا واضحا من مظاهر الادب العراقى وقمة من قممه ومفخرة من مفاخره ٠ فقد كتب للادب العراقى صفحة مشرقة ومثل في الادب العربى المعاصر

زاوية حية .
وحق ما قال الزهاوى أنه سيأتى اليـوم الذى يدرك فيه المؤرخون مدى عظمة الدور الذى قام به وفى العراق اليـوم تلاميذ الزهاوى وشباب العراق الذين غنى لهم الزهـاوى سنوات وسنوات يسيرون على نهجه ويؤمنون به .
واليوم وقد مضى على موت الزهاوى بضعة وعشرين سـنة فقد بطلت الخصومة وزال الخلاف وآمن العراق بأن الزهاوى كان علما من أعلام الحرية فى تاريخه وانه دفع العـراق الى الامام بقوة .. وأن هناته هى هنات البشر التى لا تتخلف مع الطبائع الانسانية لاسيما بالنسـبة للزمن الذى عاش فيـه وما كان فيه من ظلام واستبداد . وبالنسبة لحيـاته الطويلة المديدة ..
واليوم نرى الزهاوى وهو يمثل ركنا قويا من أركان الادب العربى المعاصر وجانبا هاما من جوانبه بالاضافة الى زمـلائه وأترابه شـوقى وحافظ ومطران والرصافى والـكاظمى
واليوم حين أتم هذا البحث أذكر انى اعـددت بحثا عن الزهاوى سنة ١٩٣٩ وأنا فى مطلع الحياة الادبية وقد قلتفى مقدمة هذا البحث : ما عشقت فى حياتى قدر رغبتى فى الكتابة عن هذا الرجل الشاعر الذى يغلب سـحر كلمـة على روحى فيردنى عن الحياة الى اجواء تسمو وتسمو حتى تبلغ عنـان السماء .
وفى سنة ١٩٥٤ كتب عدد من الدراسـات عن الأدباء

المعاصرين (١) من بينها دراسة عن الزهاوى أنقل منهـا ما قد يكون مكملا لهذه الدراسة من جوانب حياته

ظل الزهاوى سابقا لعصره متهما بين أهل جيـــله وبلده بالزندقة والجنون والالحاد · وقد منحه العمر الطويل وتقلب الزمن حيث عاش الى سن السبعين مسحة من القداسةالرائعة خاصة بعد أن تخطت العراق مرحلة الانتقال · وقد اضطر فى ابان محنته الى بيع معظم كتبه ولعل دفاعه عن حرية المـــرأة متصل الى حد كبير باثر المرأة فى حياته وفنه وقد أثرت عنه فى ابان اقامته فى استانبول مغامرات وضيئة حيث أطلق لهواه العنان بعد أن فارق بيئة العراق · ولكنه على ما طبع عليه من قلق لم يعرف الحب المديد أو يالف العشق الطـــويل المدى · ويبدو أن الزهاوى فى الحب أشبه بشـــوقى فهو على طبيعته المتكبرة لا يصل الى أعماق الحب ولا يسبر غوره وهو ليس من الروحيين الغزليين وأقرب الى الواقعية الادمية ولا تجـد عنده تلك الحرارة الدافقة فى العاطفة

ولعله وجد فى مصر أيضا سبيلا الى عاطفة او حب · وهو فى كل أحواله عن المرأة والدعوة الى تحريرها ليس الا داعية بالتعلم ·· اذ أنه لم يستجب لذلك فى حياته الخاصة · فقـد كان الزهاوى زوجا وكان زوجته متحجبة · وقد وصفت هـذه الحياة بانها كانت هادئة مرضية لنفسه · وقد تزوج الزهاوى

---

١ ــ كتاب اضواء على حياة الادباء المعاصرين ·

في سن مبكرة . وأمكن أن تهيىء له زوجه أسباب الراحة النفسية على ما به من شذوذ .. اذ كانت خير معز لي في المحن الفكرية والسياسية التي تعرضت لها .. وفى خلال سنوات مرضه باعصابه فقد كانت تعنى به عناية الأم بطفلها وتهتم بهندامه وتنظيم مكتبته وقد سافرت معه ابان سفره الى مصر وسوريا . ومن أبرز معالم حياة الزهاوى الخاصة انه لم يرزق أولادا ولعل ذلك كان مصدرا من مصادر اضطرابه النفسي .

وقد وصفه بعض النقاد بانه ناظم وليس بشاعر وقال عنه الناقد يوسف جورج : انه ليس شاعرا . اذ أن الشاعر يعتمد على العاطفة والخيال قبل العقل . والزهاوى كان لا يبالى العواطف والخيال أبدا .

وبعد فالزهاوى قوة أدبية كبيرة في تاريخ العراق الذى أحبه وفي تاريخ الادب العربى المعاصر .. وهو علم من أعلام الفكر والشعر والفلسفة العربية الحديثة يمثل جانبا واضحا هو الحرية الفكرية والتجديد والدعوة الى الاصلاح الاجتماعي .. يرحمه الله .

أنور الجندي

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
٣٠ شارع منصور ـ القاهرة
ص٠ب ٢٣٩٨